الباب الثالث

أفكار الشيعة التي تأثرت بالعناصر الأجنبية

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الاول

ما أخذه الشيعة من النصرانية

القبائل العربية التي تأثرت بالنصرانية

مقدمة

بسبب انتشار الديانة النصرانية فقد تأثرت بعض القبائل العربية بهذه الديانة قبل الإسلام، فقد ذكر أن قبيلة تغلب كانت أكثرها نصرانية، كما ذكر أن شيخ قبيلة عبد قيس بن ظهير كان نصرانيًّا، فقد دخل في النصرانية مع بعض من قبيلته بعد هزيمتهم في حرب داحس والغبراء، كما تنصر كثير من بني عجل في منطقة الأحساء والبحرين، وهم من بكر بن وائل، وقيل: إنهم حاربوا خالد بن الوليد بقيادة جابر بن بجير وَعبد الأسود، وقد اشترك بعض من نصارى العرب مع عجل من تيّم اللات وضبيعة، وذكر أن بعضًا من بني عجل كانوا يؤدون الجزية في العهد الأموي، كما كان بنو عقيل نصارى، وهم بطن من كعب بن عامر بن صعصعة من غطفان، وذكر منهم أساقفة نصارى، قيل: إنهم بعد إسلامهم قد ارتدوا إلى نصرانيتهم.

ومن النصارى بنو جفنة، فقد مدحهم على نصرانيتهم الشاعر النابغة الذبياني، ومن نصارى العرب أهل جزيرة فرسان، فقد كانت لهم كنائس فيها قد خربت، وكذا تنصر بعض بُطُون من قضاعة، وكثير من تيم اللات، وسمي دير خندف، حيث بنته ليلى القضاعية.

وكان مع الروم بعض من نصارى العرب من لخم وجذام ومن القين وبلى وعاملة وكلها من قضاعة، وذلك في معركة تبوك، كما كانت قبيلة كلب أكثرها على النصرانية في الشام، وكانت لهم كنيسة في دمشق.

ومن قبائل العرب التي كانت على النصرانية القبائل التي سكنت نجران من كندة، على رأسهم عبد المسيح، ومن قبائل اليمن المُتنصّرة قوم من لخم، كما أن أكثر القبائل

العربية التي سكنت الحيرة قبل الإسلام من كندة ولخم وجذام وعاملة وغسان كانوا على النصرانية، ولهم أسقفية في الحيرة للعبادة[١].

وَيدل على انتشار النصرانية بين العرب أسماء الأديرة وأبنيتها في الحيرة وما حولها، فقد ذكر دير جرجس، ودير حنا الكبير، ودير زرارة، وديارات الأساقفة، وعمومًا فقد ذكر أن حوالي ٣٦ ديرًا كانت في هذه المنطقة، فبالإضافة إلى الأساقف والبيع يتضح مدى انتشار النصرانية بين القبائل العربية، وأن أماكن العبادة هذه التي كانت في الحيرة أو نجران أو بصرى أو الحضر أو ميسان أو دمشق، وكانت جسورًا عبرت منها عناصر الفكر النصراني خاصة إلى تلك القبائل العربية، ومن هؤلاء العرب ومواليهم دخلوا في التشيع حاملين معهم تلك العناصر، التي كانت جزءًا من ثقافتهم وعلومهم.

وسنفصل لاحقًا تلك العناصر النصرانية، التي استعارها الشيعة منهم...

الديانة النصرانية وفكرة الأقانيم

١. تقوم النصرانية على فكرة الأقانيم الثلاثة، وهي عندهم الأب (الله)، والابن (المسيح) والروح القدس (مريم)، ولهم في هذا تفاسير مختلفة حسب مدارسهم، ولكن عمومًا يَرَوْن أن الله قد حل بالمسيح، وللمسيح عندهم صفتان: صفة الألوهية، وصفة الناسوتية: (الجسد). وهذه الأقانيم الثلاثة؛ تعبر عندهم عن شيء واحد، يتمثل بوحدة الوجود. وقد استعار بعض الشيعة فكرة الأقانيم الثلاثة، فقالوا بمحمد وعلي وفاطمة، وسنفصل الحديث في مكانه.

٢. تعذيب النفس، وهذه الفكرة في النصرانية قد مارسها القساوسة في كنائسهم وأديرتهم، وذلك عن طريق الصيام أو الامتناع عن بعض الأطعمة، مثل اللحوم، والصبر على المرض، واعتباره نوعًا من الابتلاء الذي يجب تقبله، والامتناع عن الاستحمام بدعوى أن النظافة هي نظافة الروح والقلب لا للجسد الفاني، وكذا تعذيب النفس بقلة النوم وطول الذكر والصلاة، ويبدو أن فكرة تعذيب النفس في النصرانية قد وجدت في الديانات الهندية القديمة.

(١) النصرانية وأدبها: للأب لويس سيخو الياسوعي، (ص ٤٣)، مجلة المشرق، عدد ١٥.

ففي تعاليم الهندوسية أنه لأجل الاتصال بالإله براهما يجب تعذيب النفس بطرق مختلفة للوصول إلى تقديس الرب، فمن ذلك مجابهة المشاق صعودًا إلى قمة الجبل الوعرة للتعبد في معبدالإله براهما، وقد يسير السالك صعودًا في الجبل بضع خطوات ينبطح على الأرض، ثم يقوم مستمرًّا في مسيرته، وهكذا أيام وليالي في تعذيب نفسه. كما ينقطع رهبان الهندوسية متعبدين في مغارات وزوايا بعيدة عن الناس طلبًا للوصول إلى تذليل النفس عن طريق مجابهة المشاق.

٣. الألقاب والأسماء، ابتدع النصارى لرجال دينهم ألقابًا تختلف باختلاف مراتبهم في الترقي بالديانة وخدمة الكنيسة واتباعها، وهذه المراتب تبدأ بالراهب ثم الشماس، ثم القسيس، ثم المطران، ثم البطريك، وأخيرًا مرتبة البابا. وقد استعار الشيعة الإمامية لشيوخهم مراتب، تبدأ بالواعظ، ثم المجتهد، ثم حجة الإسلام، ثم حجة الإسلام والمسلمين، ثم آية الله العظمى. أما عند الصوفية عمومًا فتبدأ بالمراتب بالشيوخ، ثم الأولياء، ثم الأبدال، ثم النقباء، ثم النجباء، ثم القطب الغوث. ولكن عند فرقة البكتاشية تبدأ بمرتبة العاشق، وهي رمز للعشق الإلهي عندهم، إلى أن تنتهي ببقية المراتب.

٤. الفداء والكفارة، يزعم النصارى أن المسيح عليه السلام تحمل جملة من العذابات والاضطهاد، وأخيرًا صلب فداء وتكفيرًا لذنوب أتباعه، فقد تحمل جميع ذنوبهم، وقدم نفسه فداءً للصليب. وقد استعارت الطريقة الرفاعية الصوفية فكرة تحمل الذنوب تلك، فقد نقل عن شيخها أنه في مرضه الطويل قد تحمل ذنوب أتباعه، ونقل عنه أنه كان يقول لخادمه يعقوب: «ما وجد أذى من أحد من الفقراء إلا وجدت آلامهُ في قلبي». وقد تسربت هذه الفكرة إلى الشيعة الإمامية، فقد نقل محمد بن يعقوب الكليني في كتابه الكافي: أن الإمام موسى بن جعفر قال: «إن الله عز وجل غضب على الشيعة، فخيرني نفسي أو هم؟ فوقيتهم والله بنفسي». كما يذكر بعض الشيعة أن الحسين بن علي رضي الله عنهما قدم نفسه لتطهير شيعته من الذنوب والآثام.

٥. النص الشرعي لا يفهمه إلا الخواص، إن حق تفسير الأناجيل وتأويلها عند النصارى من قبل الصفوة العالية ورجالهم الروحيين، وقد أعطوا التفسير، وحق حذف بعض نصوص الإنجيل، (كنص إدانة اليهود بقتل المسيح)، وهذا الحق قد

مارسوه في العديد من مجامعهم القديمة: كمجمع نيقيا والحديث في روما. وهذه الفكرة نادى بها كثير من علماء الشيعة، الذين يرون أن النص القرآني أو نص الحديث له معنى ظاهر وباطن، لا يعلمه إلا الإمام أو نوابه (العلماء).

٦. الطاعة العمياء لرجال الدين، تنص المسيحية على وجوب طاعة رجل الدين والأخذ بتعاليمه دون تردد، ويرمون المتردد الذي يكثر النقاش لشيخه بأنه ضعيف الإيمان، وقد وصمهم القرآن بالطاعة العمياء لرجال دينهم، فقال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ﴾ التوبة: ٣١، صدق الله العظيم. واستعار الشيعة هذه الفكرة بقولهم: وجوب طاعة الإمام؛ لأنه معصوم. وكذا وجوب تقليد العالم المجتهد، وعدم الخروج عن فتواه.

٧. اتخاذ قبور الأولياء معابد، تعتقد النصرانية أن لرجال دينهم قوة روحية ليس للآخرين، إلى درجة أنهم يدعون قدرتهم على إحياء الموتى ورد البصر وإبراء الأبرص وشفاء المريض، وغير ذلك من المعجزات، وقاموا بتقديس أوليائهم، وبناء القبب والكنائس والمعابد حول قبورهم وزيارتها والدعاء لهم. وقد تأثرت الطرق الصوفية والشيعة الإمامية بهذا النهج النصراني، فاتخذوا لأوليائهم معابد ومساجد وقببًا، يزورونها، ويدورون حولها، ويطلبون حوائجهم من صاحب القبر، وقد يذبحون لها النذر، وبالرغم من أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد نهى أن تتخذ القبور مساجد.

وقد فصلنا الحديث عن هذا الموضوع المهم، وذكر مراجع البحث المتعلقة بذلك. ومن أثر النصرانية على بعض علماء الشيعة الإمامية، ما كتبه محمد باقر المجلسي في كتابه (بحار الأنوار) والمتعلق بمولد الحسين رضي الله عنه وفاطمة الزهراء رضي الله عنها، فقد استعار المجلسي صفات النصرانية المتعلقة بميلاد المسيح ومريم عليهم السلام، كما أنه استعار لصفات الإمام الغائب ما عند المسيحية نفسها من صفات الأنبياء، وقد فصلنا ذلك من نقول المجلسي، وذلك في كتابنا (جذور التشيع). وربما يرجع السبب أن المجلسي قد تأثر بالفكر النصراني السائد في جبل عامل قبل ذهابه إلى إيران الصفوية.

الفصل الثاني

ما أخذه الشيعة من اليهودية

تذكر المصادر أن ملك حمير في اليمن ذا النواس كان يهوديًّا، وأنه قاد جيشه اليهودي إلى نجران، وحارب النصارى وحرقهم في موقعة الأخدود الشهيرة، وتشير المصادر إلى الصلة بين يهود يثرِب ويهود نجران، كما تشير بعض المصادر إلى وجود يهود في الحيرة، منهم رفاعة الخيبري، كما ذكر منهم بصروي من يهود الحيرة، واشتهر بالسحر والشعوذة، وانتقل إلى الكوفة واستمر في شعوذته إلى أن قتله جندب الأسدي، وقد ورثت الكوفة الكثير من العناصر الأجنبية التي كان لها أثر كبير في تاريخ التشيع، فقد ورد في بعض مصادر الشيعة: أن الإمام جعفر الصادق قد لعن أحد الأتباع، المدعو زرارة بن أعين، لأنه كان يتردد على يهودية في الكوفة.

تأثير اليهودية على الصوفية والشيعة الإمامية

١. الذكر وسماع الموسيقى وضرب الدفوف

اشتهرت اليهودية بالتلاوة والتغني بما سُمِّي بمزامير داود، وقد أُفرد له مكان في التوراة، فمن سمات رجال الدين اليهود أن يقوم رجل الدين حسن الصوت بتلاوة الترانيم والأشعار والأمثال. وقد يصاحب ذلك أيضًا الضرب على الدفوف أو أصوات المزامير والآلات الموسيقية، وقد ورد النص في مزامير دَاوُدَ رقم (١٤٩): «ليبتهج بنو صهيون بملكهم، ليسبحوا اسمه برقص ودف، سبحوا بأوتار ومزمار، سبحوه بصنوج الهتاف» وقد ورثت النصرانية هذه الفكرة من اليهودية، فانتشرت في الكنائس وأماكن العبادة الترانيم الدينية المصحوبة بالعزف على بعض الآلات الموسيقية، وإلى اليوم تعد هذه الوسيلة من وسائل الكنيسة في الجذب إليها، واليهودية قد اتخذت البوق صوتًا لمواقيت صلاتهم، وطورت الكنيسة الضرب بالناقوس إعلانًا لوقت الصلاة، كما ورد في أسفار العهد القديم: «هللوا وغنوا للرب ترنيمة جديدة، تسبيحة في جماعة الأتقياء، ليفرح إسرائيل بخالقه،

ليبتهج بنو صهيون بملكهم، ليسبحوا اسمه برقص- بدف وعود، ليرنموا له؛ لأن الرب راضٍ عن شعبه، سبحوه برباب وعود، سبحوه بدف ورقص، سبحوه بأوتار مزمار»[١].

وقد تأثرت المدارس الصوفية على اختلاف أنواعها بما يسمى بالإنشاد الديني والمدائح النبوية والأذكار في المناسبات: كالمولد النبوي، والإسراء والمعراج، ومناسبة مولد ولي كل فرقة من هذه الفرق، أو ذكرى موته، ويصاحب هذا الإنشاد الجماعي الضرب بالدف، وهز الأجساد بطرق مختلفة، قد تصل إلى حد الرقص، وفي هذه المناسبات يحلو لهم الخروج عن كثير من المعتقدات أو بما يسمى بالشطحات الصوفية، مثل إضفاء صفة روحانية إلى صفات ملائكية، يخرج فيها عن بشريته.

وقد استعار الشيعة أيضًا هذه الوسيلة فيما يسمى بالقراءات الحسينية، حيث يقومون بمناسبة شهر محرم بقراءة مقتل الحسين عليه السلام، وإنشاد الأشعار، واللطم على الصدور.

٢. التأويل الباطني

منذ القدم قام أحبار اليهود بتفسير وتأويل نصوص التوراة، فإذا وجد نص لا يرغبون بمعناه الظاهري، قاموا بتأويله وتفسير معناه على غير المعنى الظاهر.

وبتقدم الزمن كثرت عندهم التفاسير والتأويلات الباطنية، ليس فقط لنصوص التلمود الأورشليمي أو التلمود البابلي، وكمثال على ذلك نحيل القارئ إلى كتابي (الزواج المؤقت) لتتبع تفسير النص التلمودي المتعلق بالأب نحمان حينما يزور مدينة شكنزب كان يقف بين النساء، ويقول: من تتزوجني لليلة واحدة[٢].

ومن المدارس اليهودية القديمة التي اشتهرت بالتأويل الباطني كطائفة الحروفيين: التي اعتمدت بتأويلها على الحروف، وإن كل حرف يرمز إلى معنى معين عندهم، وكطائفة الفيضيين: وهم الذين يدعون أن شدة الاستغراق بالذكر تؤدي إلى الفيض الروحي الذي يحصل عنه كشف الأسرار.

---

(١) الجعيط: الكوفة (ص ١٠١)، الطبري: تاريخ، (٤/٤٩٢- ٤٩٣)، العهد القديم: المزامير، مزمور (١٤٩- ١٥٠).

(٢) الدكتور. عبداللطيف عبدالرحمن الحسن: الزواج المؤقت، دار الحرف، بيروت، سنة ٢٠٠٦م.

وقد تأثرت المذاهب الصوفية بهذا النهج على مراتب ودرجات مختلفة، فظهر من بين شيوخ الصوفية والشيعة الإمامية من ينهج التفسير الباطني، معتمدًا على بعض معاني الحروف التي يدعونها، وكذا تأثرهم بدعوى الكشف الإلهي، فعند كثير من أقطاب الصوفية ومظاهر تأثر الصوفية والشيعة الإمامية بالغنوصية، منهج وأسلوب الفريقين في تفسير وتأويل آيات القرآن الكريم، حيث يعتقدون أن للنص القرآني أو لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم معنًى ظاهريًّا ومعنًى باطنيًّا.

ففي مجال المعنى الباطني يخوض الفريقان بالتفسير بما تشتهيه نفوسهم وعقولهم، ونضرب لذلك مثلاً في تفسير قوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ الرحمن: ١٩ ـ ٢٠، فمرج البحرين عندهم: فاطمة وعلي يلتقيان يتزواجان ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ الرحمن: ٢٢، أي يلد منها الحسين والحسن، ونسب بعض الشيعة الإمامية حديثًا موضوعًا مفاده: «إن القرآن قد نزل بإياكِ أعني واسمعي يا جارة»، وقد ورد هذا في تفسير القمي لآيات صرف معناها ضد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

وتدعي الصوفية أن كشف الله لوليها حججًا كانت مستورة عن الخلق، وقد وصل ببعضهم الادعاء بالوحي الإلهي أو الإلهام أو الإسراء والمعراج إلى العرش، ووصول شيخهم إلى سدرة المنتهى[1].

فكرة التشبيه والتجسيد عند اليهود

في نصوص التوراة والتلمود عبارات تدل على تشبيه الخالق بمخلوقاته، ومنها الإنسان، وتشبيه الخالق بصفات إنسانية أو حسية، فقد ورد في التوراة: أن الله قد خلق الكون في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع؛ ولذا فهم لا يمارسون عملاً في ذلك اليوم، كما ورد أن الخالق يمضي أكثر الليل باكيًا على تهديم الهيكل، وشروح هذه النصوص قد ذهبت بعيدًا إلى درجة تجسيد الخالق، ووصفه بهيكل له طول وعرض.

(١) خانجي: إيران الصفوية. انظر: الشعراني: كتاب الأنوار القدسية في بيان قواعد الصوفية، (ص ٢٩٠)، وما بعدها.

وهذه الأفكار انتقلت إلى بعض فرق المسلمين: كفرقة المجسمة التي كانت بزعامة هشام بن الحكم من كبار شيوخ الشيعة في أوائل العصر العباسي، وادعوا أن طول إلههم سبعون ذراعًا.

وفكرة البداء عند الشيعة لها علاقة بهذا الموضوع، حيث ينسبون إلى الخالق تغيير مقدراته، حيث يبدو له أمر آخر، فيعمد إلى تغيير إرادته، وهذا اقتراب من فكرة تغيير البشر لآرائهم وأفعالهم، حينما يبدو لهم خطأ ما ذهبوا إليه.

كما أن فكرة التشبيه انتقلت بعض مظاهرها إلى بعض الفرق الصوفية، حيث ادعى بعضهم صفات الألوهية لشيوخهم الذين وصلوا إلى درجة الغوث، وأن صفة الألوهية هذه تمكن الشيخ من الانتقال من مكان إلى آخر بلمح البصر، كما استعار بعض فرق الصوفية فكرة العصمة لشيوخهم، وأنهم منزهون عما يشين.

فكرة الولاية

عند الشيعة الإمامية تعد الولاية ركنًا من أركان الدين، حيث يجب عندهم الإقرار بولاية علي والأئمة وبقية الأئمة الاثني عشر، والذين تولوا الخلافة قبله يعدونهم غاصبين منكرين لحق علي، فمن أنكر هذه الولاية عندهم يعد كافرًا وإن صام وصلى وحج وزكى، فأعماله كلها باطلة.

أورد البحراني في تفسيره رواية عن جعفر الصادق «قال أمير المؤمنين عليه السلام: إن الله عز وجل عرض ولايتي على أهل السماوات وعلى أهل الأرض، أقر بها من أقر، وأنكرها من أنكر، وأنكرها يونس فحبسه في بطن الحوت حتى أقرَ بها».

وروى الكليني في كتابه الكافي العديد من الروايات التي تفيد أن ولاية علي قد أقر بها جميع الأنبياء، وشك فيها من ابتلعه الحوت (يونس عليه السلام)، أو أصيب بمرض عضال (أيوب عليه السلام)، وكذلك جميع المخلوقات من الطيور وغيرها.

وذكر العياشي في تفسيره «أن المؤمنين بعلي هم الخالدون في الجنة، وإن كان في أعمالهم ما يسيء»، وذكر أيضًا: «أن حب علي حسنة لا تضر معها سيئة، وبغضه مصيبة

لا تنفع معها حسنة»، ويعتقد الشيعة أن الإمام علي بن أبي طالب هو وصي من النبي مثله كمثل النبي موسى، حينما أوصى إلى يوشع بن نون كما ورد هذا في كتاب الحجة من الكافي للكليني، وهذا التأسيس للولاية والوصاية على التفاصيل الكثيرة والواردة في مصادر الشيعة، خاصة ما ذكره ابن بابويه القمي، وما ذكره الشيخ المفيد والشيخ الطوسي وغيرهم، كل ذلك منتحلاً ومأخوذًا عن اليهود في شروح التوراة والتلمود، التي عرفها العرب اليهود قديمًا من دخل منهم في الإسلام وبقي على سوء سريرته وعقيدته اليهودية، ولم يتورع في إدخال هذه المبادئ إلى التشيع، وأن يضفي عليها تأويلات يقتضيها المقام.

وروى النعماني في كتابه (الغيبة) أن الإمام الغائب الثاني عشر قد ورد ما يفيد غيبته، ثم خروجه في السفر الأول من التوراة من تمكين القائم وفضله، وكذا تكرر هذا المعنى في السفر الثاني والثالث من التوراة، وهذا يوضح بجلاء المصادر اليهودية التي كان يستقي منها رواة الشيعة.

وتورد بعض الروايات أن القائم حينما يظهر بمكة ينادى باسمه العبراني، كما تواضعت على ذلك مصادر القوم، كـ(الأنوار النعمانية) للجزائري، وكتاب (الإرشاد) للشيخ المفيد، و(إعلام الورى) للطبرسي. والسؤال الذي يضعه الباحث: لماذا ينادى باسمه باللغة العبرية؟ والجواب: هو أنهم يَرَوْن تأكيد ذلك معززًا بأن اسمه قد ورد في التوراة.

وهذا أوضح دليل على رجوعهم المباشر للغة، ومصدر الديانة اليهودية، بل الأدهى من ذلك والأمر ما أورده النعماني في غيبته: أن القائم سيحكم بشريعة داود تفصيلاً؛ لذلك كما في بحار الأنوار للمجلسي وغيره من المصادر: أن شريعتهم هي القتل وسفك الدماء، وأنه أول ما يبدأ قائمهم بقتل العرب من قريش والعرب جميعًا، وهذا أوضح دليل أنه كتب تحت مؤثرات يهودية ومجوسية، ودليل على التقاء نوايا الشيعة بالنوايا اليهودية في سيادة شريعة اليهود ولغتهم (في مكة).

فكرة الكرسي والتابوت

في ثورة المختار في الكوفة التي قامت بتعقب قتلة الحسين بن علي، فقد اتخذت هذه الثورة رمزًا لها، وهو كرسي قيل: إن علي بن أبي طالب كان يخطب عليه في مسجد الكوفة،

وكانوا يحملونه معهم أينما ذهبوا وساروا لقتال الأمويين، ويذكر المستشرق ولهوزن أن هذه الفكرة صنعها اليمانيون من همدان وشبام ونهد وخارف وثور وشاكر، وكان كثير ممن سكن في الكوفة منهم متهمون بالسبئية (اليهودية)؛ لأن الكرسي يشبه ما كان يحمله بنو إسرائيل في التابوت في أثناء قتالهم، حيث يتبركون بهذا التابوت، الذي قيل: إن صحف موسى كانت تحتفظ به، وذكر في الكوفة خبر المرأتين الناعطيتين، اللتين اتهمتا بنشر التعاليم السبئية، وهما امرأتان يمنيتان.

وكذلك أبو نوف الهمداني الذي ذكر أنه كان يمد المختار بالأفكار السبئية، وقيل: إن أول من ابتدع فكرة الكرسي المقدس عندهم هو من الأشعريين (قبيلة يمنية)، ثم من قام على سدانة الكرسي، هو حوشب بن البرسمي[1].

وهذا يشير إلى حقيقة التقاء التشيع باليهودية من خلال الأفكار والرجال والنساء المذكورات في الكوفة.

(١) انظر تفصيل ذلك في كتابنا: (أثر الفكر اليهودي على غلاة الشيعة).

الفصل الثالث

ما أخذه الشيعة من الديانات الهندية القديمة

البرهمية

هي الديانة القديمة للهنود منسوبة إلى الآلهة (براهما) بما يقرب من الألف الأول قبل الميلاد، وقد سطرت تعاليمها في كتب الفيديا وفي قانون مانو تتعلق بالمعارف المنسوبة إلى النار والهواء والشمس، وللإلهة الكثيرة من الأسماء المتعددة والقوى، وفيها أيضًا تعاليم العبادات وشعائرها وبعض أحكام المعاملات.

كما تبين طريقة تقديم القرابين لحفظ الأرواح من الشياطين والرقى ضد السحر، وتشمل أيضًا التعاليم إشارات إلى كيفية نشأة الكون والخلق وتقسيم طبقات المجتمع.

ويرى بعض الباحثين أن أصل هذه الديانة توحيد للإله (براهما) بدليل ما ورد في كثير من نصوص الفيديا، ولكن غلب عليهم فيما بعد القول بتعدد الآلهة مع بقاء براهما الإله القوي الأوحد، الذي لا يلد ولا يولد، وليس هو بذكر ولا بأنثى.

وفي البداية أضيف لبراهما صفة الموجد والحافظ والمهلك، فكانت بابًا لدعوى التثليث، وقد وجدت الديانة بدوافع الأهواء والنزاعات بين الفرق.

وحدة الوجود في البرهمية

ومقتضاها عندهم أن الكائنات جميعًا من جماد ونبات وحيوان سرت فيها روح الإله الموجد، وعلى ذلك فإن هذه الكائنات ليست إلا مظاهر منه وحده.

ومن هنا فالهدف الأساسي للإنسان يجب أن يكون الفناء في هذا الإله المطلق، حيث في ذلك سعادته، ولا يحصل ذلك إلا بالزهد والصوم والسهر وتعذيب الجسد، فتخمد بذلك شهواته، وترقى روحه وتصفو. وتشير الفيديا: إلى أن الله والنفس الإنسانية وجميع

الكائنات إنما هي شيء واحد، وما الشمس والقمر والأرواح في الموجودات إلا أجزاء ومظاهر للإله المطلق.

إن نظرية وحدة الوجود انتقلت من الديانة الهندية إلى الفارسية، حيث بلغت بعض المسلمين عن هذا الطريق، وتأثروا بها مثل أبي منصور الحلاج وابن عربي، وأصبحت ركنًا من أركان الفرق الصوفية، التي تشعبت فيما بعد، ولم تسلم حركات الفرق الشيعية الصوفية، التي ظهرت في إيران من تأثيرات هذه النظرية، كما سنرى في الفصل المتعلق بتشيع إيران.

تناسخ الأرواح

إن أرواح الكائنات ومنها الإنسان لا تفنى بالموت، ومنها تفارق الجسد الذي كانت فيه (الموت) إلى أن تحل في جسد آخر، فتظل متنقلة إلى أن تصل نهايتها الأخيرة وهي الاتحاد؛ فالإنسان في أثناء حياته تعلق روحه بالأفعال التي يمارسها، فإن كانت خيرًا فالسعادة ستكون مصير روحه، وإن كانت شرًّا فمصيرها الى الشقاء، فاذا غادرت روحه الخيرة جسدها، فإنها تحل في جسد آخر يحقق لها استمرار السعادة، وإن كانت شريرة بما اقترفته من أفعال حلت بجسد متعب كالحمار أو الكلب، حيث تبقى حبيسة في شقاء، جزاء لها، وتستمر هذه الدورة للروح بين الكائنات إلى أن تتطهر من جميع الشرور وتصبح مستعدة للاتحاد والرجوع لمصدرها الأصلي (براهما)، فانتقال الروح من جسد إلى آخر بهذه الكيفية والهدف هو التناسخ، والروح في عالمها لا تدرى بالعوالم التي مرت بها سابقًا، فكل دورة تكون منقطعة عن الأخرى.

ويترتب على ذلك عدم وجود بعث وثواب بالصورة التي عليها الديانات السماوية، إنما الروح تأخذ جزاءها بالكيفية المعبر عنها سابقًا، ويستتبع ذلك عدم وجود الجنة والنار على الشكل المعروف في العقيدة الإسلامية، إنما يؤمنون بأن أرواح الناس تكون في حياتهم الأولى في منزلة وسطى في الكسب والعمل، فإن كان خيرًا ذهبت أرواحهم إلى المنزلة العليا، حيث السعادة (الجنة)، وإن كان العكس ذهبت إلى الدرجات السفلى، حيث العذاب (النار)، ويكون ذلك لمدة معينة تنتقل فيها الأرواح فيما بعد لأجساد أخرى، ومن

هنا يعتقدون أن كثيرًا من الأرواح الخيرة قد حلت ببعض الكائنات فقدستها، فحلت مثلاً بنهر (براهما) بوترا، فأصبح ماؤه مقدسًا طاهرًا، تدور حوله كثير من المعتقدات، حتى إنه يطهر الأجساد التي تلقى به.

كما أن تلك الأرواح قد حلت بالأبقار، فأصبحت مقدسة يحرم ذبحها وأكلها، بل لا يجوز التعرض لها بأذى، فذلك من أكبر الآثام. كما اعتقدوا أن تلك الأرواح قد حلت في صنم جماد، اقتضى عندهم تقديسه وعبادته، أو حلت برجل معين، فأصبح مقدسًا عندهم، وذلك بما ناله من نسك وصيام وتصوف.

إن نظرية تناسخ الأرواح هي الأخرى انتقلت من الديانة الهندية إلى الديانة الفارسية، ومن الفرس انتقل بعض تأثيرها في عقائد كثيرة من الفرق المنتسبة إلى الإسلام، وسنرى أن بعض فرق الشيعة كانت تقضي بهذه الفكرة، وأظهرها بعضهم بأشكال مختلفة معدلة، لتبرير عقائدهم، كما سنرى ذلك بالتفصيل فيما بعد.

لا نبوة في الديانة البرهمية

النبوة بالمعنى الذي تشير إليه الديانات السماوية لا تعتقد بها البرهمية، أولًا باعتبار ذلك عملاً مستحيلاً أن يختص الخالق أحد عباده دون الآخرين بالهداية، والواجب أن يمنع ذلك عن بقية خلقه. ويذكر الشهرستاني حجتهم في أفكار النبوة: أنهم يقولون: إن النبي لا يخلو حاله من أمرين: فإما أن يأمر بمعقول، والبشر لا يلزمهم نبي من أجل الوصول إليه؛ لأنهم في عقل متساو، والجميع لديهم القدرة على الوصول إليه، وإما أن يأمر بغير معقول، وعندها لا يكون الأمر مقبولاً؛ لأن في ذلك تجهيلاً وبهيمية للعاقل. والحقيقة أن البرهمية أغلقت فكرة محدودية العقل البشرى وإدراكه، خاصة في بعض مراحل حياة البشر، حيث يكون العقل في حاجة إلى هداية ربانية عن طريق النبوة.

بالإضافة إلى أن البرهمية قد ناقضت نفسها حينما أوصلت بعض البشر إلى مصاف الآلهة بدعوى الحلول والاتحاد، كما أوضحنا، كما أنها لم تأخذ بمقتضى العقل في كثير من تعاليمها المنافية بشكل صارخ لحكم العقل كتقسيم المجتمع إلى أربع طبقات لا تقل أي

طبقة أو تنتقل إلى أخرى، وهم البراهمة (رجال الدين)، والكشتريين (رجال الحرب)، والفيسائيين وهم (رجال العمل والتجارة) والشوذرا وهم (المنبوذين)، وأصبحوا منبوذين لأنهم انحدروا من قدم الإله براهما، وهي أحط جزء من جسمه، فليس لهم إلا وظيفة الخدمة؛ لأنهم رجس نجسون، لا يصلح لمسهم ولا مؤاكلتهم ولا مصاهرتهم. والمنبوذ ينجس الآنية التي يشرب أو يأكل فيها، فلا يصح استعمالها بعده[١].

لا جنة ولا نار

ما زالت الهندوسية لا تؤمن بالبعث والحساب حسب المفهوم الإسلامي، فإن الثواب والعقاب هو الآخر لا وجود له، فلا جنة يخلد فيها المؤمنون، ولا النار يعاقب بها الأشرار، كما هو مقرر في المفهوم الإسلامي، وإنما بما يقضى به التناسخ تكون أرواح المؤمنين في العالم العلوي (جنة) سعيدة باتحادها بـ(براهما)، وأرواح الأشرار تكون في عالم سفلي (جهنم) لتتطهر مما علق بها من شرور في دورات مختلفة، حتى تتطهر الروح نهائيًّا. وعلى هذا فإن الثواب والعقاب يقع على الروح لا على الجسد، وهما إنما يكونان لمدة معينة خاصة بالنسبة للروح الشريرة[٢].

وقد قامت حركة ضد البرهمية سميت بالبوذية، نسبة إلى المصلح بوذا، فأنكرت البوذية وجود الآلهة؛ فهي حركة إلحادية كما رفضت نظام الطبقات الموجودة في البرهمية، لكن فكرة التناسخ بقيت في البوذية مع بعض التحوير، الذي يقتضي به المقال، حيث دعت البوذية إلى الزهد ونبذ العنف، ولا تؤمن البوذية بصلاة البراهمة أو تقديم

(١) من المحتمل أن يكون لهذه العقيدة المتعلقة بنجاسة المنبوذ صلة وتأثير، لما هو عند بعض الفرق الإسلامية (بعض الشيعة) من اعتقادها بنجاسة أهل الكتاب خاصة إذا لحقه رطوبة، أما آنيته وطعامه فغير جائزة للمسلم، وقد ذكر بعض السائحين الأوروبيين بمذكراتهم: النصيحة بحمل كأس ماء خاص واستعماله عند السياحة في إيران، كما ينصحون بتجنب السائح المبلل بالمطر والاحتكاك بالناس في الأماكن العامة، وفي إيران لا يجوز الزواج بالكتابية إلا متعة، حسب تعاليم الإمامية، وحجتهم في ذلك أن أهل الكتاب مشركون. ونجاسة المشرك جاء بها القرآن الكريم.

(٢) لقد أنكرت كثير من الفرق المنتسبة إلى الإسلام الجنة والنار، وقالوا بتأويل ما جاء فيها في القرآن الكريم، إنما هي أسماء رجال، ولا شك أن ذلك من آثار الديانات التي لا تؤمن بالجنة والنار والحساب والبعث، على التفصيل الوارد في الدين الإسلامي، وقد ورد هذا الاعتقاد عند كثير من الفرق الشيعية، كما ذكر ذلك النوبختي في فرق الشيعة، وكما سنرى ذلك مفصلاً.

القرابين، كما أباحت البوذية الانتحار، وأباحت كذلك التعري للتحلل من القيود، والظهور على الحقيقة ودونما زيف، وقد ادَّعى تلامذة بوذا فيما بعد آراء أضيفت إلى البوذية، حاولوا فيها التوفيق بين الاعتقاد بالآلهة كما في الهندوسية وبين آراء بوذا، ومنها ادعاؤهم أن روح الآلهة (براهما) قد حلت في بوذا، واعتقدوا بوجوب تآخي جميع الديانات؛ لأنها جميعًا على حق باعتبار الحقيقة المنبعثة من معتنقيها، فلا بد من احترام جميع الديانات والأفكار؛ فأنشأت ما يسمى بـ (اليوجا)، وقد انتشرت البوذية في شرق آسيا في الصين واليابان وسيام وبورما، ولم تسلم كثير من الفرق المنتسبة إلى الإسلام من بعض الأفكار البوذية كما سنرى[1].

١. تأثير بعض الديانات الهندية

ترى الديانة البرهمية القديمة وجوب تقديس الثلاثة: (الروح وبراهما والكون)، وهذه الثلاثة عندهم شيء واحد؛ فالروح قد حلت في براهما (الإله) وهذا الرب أو الإله قد حل في جميع أجزاء الكون من إنسان أو حيوان أو نبات أو جماد، وهذه النظرية الهندوسية قد بلورت فكرة وحدة الوجود التي ظهرت بأشكال وتبريرات مختلفة عند الديانات القديمة، والتي انتقلت فيها إلى الفرق الصوفية وبعض الشيعة الإمامية، وتفرع عن هذه النظرية فكرة التناسخ، ومفادها أن الأرواح بعد الموت إن كانت صالحة حلت في مخلوق بهيج كالطير، أما إن كانت ضالة فتحل في حيوان متعب كالحمار أو الكلب، فقد انتقلت هذه الفكرة إلى الديانة الفارسية القديمة أي المجوسية، وعنها تسربت إلى الشيعة الإمامية.

في كتاب (بحار الأنوار) حديث يبرر فيه حرق جسد الميت، لتطهيره، كما يفعل المجوس قديمًا.

٢. العشق الإلهي في عقيدة كريشنا

ترى هذه العقيدة أن أصدق تعبير للإنسان في محبته وعشقه للآلهة هو التعبير بالرقص الجسدي، ولكل رقصة عندهم قصة حب وعشق تسرد ويعبر عنها بالرقص، ثم

(١) انظر: الحيني في العقائد والأديان.

قد يفصح عنها كتابيًّا، وهذا ما تقوم به الراقصات الهنديات في حركاتهن باليد أو الرجل أو التمايل بالرأس والنظر... إلخ

وقد تأثرت الفرق الصوفية بفكرة العشق الإلهي، وكذلك الشيعة الإمامية، حيث كتبوا في هذا الموضوع العديد من مؤلفاتهم واهتماماتهم، أشار إليها الدكتور/ علي شريعتي في كتابه (الإمام الساجد).

٣. الخضوع للشيخ أو الإمام

وفي الديانة البوذية تقتضي تعاليمهم استحضار صورة بوذا، والتفكير به، والخضوع إليه، سواء كان تمثالاً أمامهم في عبادتهم أو تخيلاً، وهذه الفكرة انتقلت إلى الصوفية بشكل واسع إلى درجة أن بعضهم، قال: «من لا شيخ له لا دين له»، ولا يصح التدرج في مدارج السالكين عندهم، إلا على يد شيخ قد وصل إلى درجة العارفين، وقد ذكر بعض تعاليم شيوخهم بأن المريد أو السالك لطريقتهم يجب أن يكون في يد شيخه كالميت في يد مغسله يقلبه حيث يشاء. وهذه العلاقة بين المريد وشيخه قد تصل لدرجة الفناء بعد الخضوع، والاستجابة لجميع أوامر وطلبات الشيخ، وإن بدت غير مفهومة أو منافية للمنطق أو ربما غير مشروعة؛ فبسبب إيمان الصوفية بفكرة الجبر التي تقضي أن العبد مسير لا مخير، وأن ما يقع فيه العبد هو من إرادة الله لا يجوز لأحد التدخل في ما لا يعنيه، إلى درجة أنه ذكر أن أحد شيوخهم أمر المريدين على شاطئ البحر بعدم إنقاذ سفينة توشك على الغرق؛ لأن إنقاذهم يحول دون إرادة الله في إغراقهم، لسبب لا نعلمه نحن البشر[١].

وتعظم الشيعة أئمتها كما هو عند الصوفية، وتعتقد أنهم أولي الأمر الذين أمر الله تعالى بطاعتهم، وأنهم الشهداء على الناس، وأنهم أبواب الله والسبل إليه، وأن أمرهم ونهيهم هو أمر الله ونهيه، والراد عليهم كالراد على الرسول صلى الله عليه وسلم، والراد على الرسول صلى الله عليه وسلم كالراد على الله، فالأئمة عندهم يعلمون جميع العلوم التي خرجت إلى الملائكة وإلى الأنبياء والرسل، وأنهم أيضًا معصومون من الخطأ والزلل، وكتب الحديث عند الشيعة الإمامية تعكس كل هذه المعاني، بل إن أكثرهم يضعون أبوابًا

(١) انظر: كتاب الأنوار القدسية في بيان قواعد الصوفية: الشعراني، (ص ٢٩٠).

في الحديث من هذه المعاني، وخاصة ما ورد في كتب الحديث الأربعة التي سبق ذكرها، وما زاد عليها المصنفون المتأخرون: كالحلي في كتاب (السرائر)، والمجلسي في كتاب (بحار الأنوار)، وغيرهم من المتأخرين، ووصل بهم الحال إلى الادعاء بأن الله قد فوَّض الأئمة بإدارة الكون، فهم يحرمون ما يشاؤون ويحلون ما يشاؤون، وجميع المخلوقات تحت أمرهم، من انشقاق القمر، وتسبيح الحصى، والنّاس عبيد للأئمة، عليهم واجب الطاعة دونما اعتراض؛ لأن الاعتراض من علامات الشك والخروج على الإمام.

٤. تعذيب النفس

وقد سبق أن أشرنا إلى فكرة تعذيب النفس في البرهمية والهندوكية، وانتقال هذه العقيدة إلى النصرانية، وتأثيرها في كل من الصوفية والشيعة الإمامية.

فالإمامية لهم مواسم في عاشوراء وغيرها، يقومون خلالها باللطم على خدودهم وصدورهم، وربما قاموا أيضًا بضرب جباههم بالسيف أو الحديد (التطبير) وإسالة دمائهم بمشاعر مختلطة بالحزن والندم على مقتل الحسين بن علي رضي الله عنه والأئمة الآخرين[١].

عادة حرق الموتى

في الديانة الهندوكية عادة حرق موتاهم، وذر رماد الميت في النهر المقدس (براهما بوترا)، وفي القرون السابقة كانت عادة حرق الزوجة وهي حية، حيث لا بقاء لها بعد موت زوجها، وقد أبطل الإنجليز هذه العادة في الهند. وقد انتقل تطبيق هذه العادة إلى الديانة الفارسية؛ فكان بعض الفرس يحرقون موتاهم، وبعضهم الآخر يضعون الميت في مكان عالٍ مخصص لكي تأكله الطيور الجارحة، ظنًّا أن روح الميت تنتقل إلى هذه الطيور، ويسمون هذا المكان العالي بـ(الدراخما). ويبدو أن عادة حرق الموتى استمرت حتى بعد الفتح الإسلامي لإيران في بعض المناطق النائية. وقد تأثر فيما يبدو بعض الشيعة في إيران بتطبيق هذه العادة، فقد أورد المجلسي في (بحار الأنوار) روايةً عن علي بن الحسين يرويها

(١) انظر: رسالة التنزيه لأعمال الشبيه: محمد كاشف الغطاء، (ص ٣٠).

على لسان أحد بني إسرائيل: «أنه أوصى أولاده أن يحرقوه بعد موته، ويذرون نصف رماده في البر، والنصف الآخر في البحر، فلما فعلوا ذلك أمر الله ذلك، أرجعه لذلك الإنسان (الميت)، وسأله الخالق: ما حملك على تلك الوصية؟ فقال العبد: خوفك. فقال الله: قد أمنت خوفك وغفرت لك».

وهذه الرواية تدل بوضوح على مدى استحكام تطبيق هذه العادة عند الفرد، حتى بعد دخوله الإسلام أو تشيعه وإعطائه مبررات حسنة على لسان الإمام علي بن الحسين، الذي نعتقد أنه بريء منها رضي الله عنه[1].

(١) المجلسي: البحار، (١١٧/١٥)، من القسم الثاني (الطبعة الحجرية).

obeikan.com

الفصل الرابع

ما أخذه الشيعة من الفلسفة اليونانية

ورثت الدولة الرومانية الثقافة والعلوم اليونانية، وباحتلال الدولة الرومانية بعض أطراف البلاد العربية نقلت الثقافة والفلسفة اليونانية عن الرومان إلى العلماء العرب بدءًا من سواحل البحر الأبيض، وقام فلاسفة العرب بترجمة الفكر الفلسفي اليوناني، خاصة الأفلاطونية والأرسطية، كما هو واضح في فلسفة ابن سينا والكندي والفارابي وغيرهم من الفلاسفة العرب المسلمين، ومن كتب هؤلاء تأثرت الفرق الصوفية والشيعة الاثني عشرية، وخاصةً كان تأثرهم بالفلسفة الإشراقية، ومثالاً على ذلك رأى الفيلسوف اليوناني أفلوطين فيما يتعلق بوحدة الوجود وفكرة الحلول الإلهي.

كما أن في الفلسفة اليونانية فكرة الغنوصية التي تعني عند فلاسفة اليونان حصول المعرفة عن طريق الكشف والإلهام، وهذه ساقتهم إلى القول: إن المعرفة تأتي عن طريق قذف النور في العقول، ويرون أن الإنسان هو أول مخلوق قذف بفكرة النور الأزلي، مما أضاء له طريق المعرفة والتميز خلاف بقية المخلوقات.

١. فكرة العرفان والكشف

استبدل الصوفية والشيعة الإمامية كلمة الوحي والإلهام التي قالت بها الفلسفة الأفلاطونية المحدثة بكلمة أقل إنكارًا، فاستبدلوا الوحي والإلهام بالعرفان والكشف، فالعقل عند الصوفية والشيعة الإمامية دليل شرعي مقدم عند الشيعة على القياس أو الإجماع وعن طريق دليل العقل، يدعون بمقدرة العقل على المعرفة واستمرارية التعقل والتفكير تؤدي إلى كشف المحجوب، وبهذا المعنى يلتقون مع الفلسفة الاستشراقية المحدثة، فكلمة غنوص في اليونانية يقابلها العرفان.

وقد أثرت الفلسفة الاستشراقية عمومًا بكل من الصوفية والشيعة الإمامية في إيران، خاصة بعد القرن العاشر الهجري، ولتفضيل ذلك نحيل القارئ إلى ما كتبناه عن إيران وآراء

المُلا صدرا، وقد درس هذه الظاهرة -أي ظاهرة العرفان في إيران- المستشرق الفرنسي: هنري كوربيان، وقد دوَّنا آراءه في كتابنا (جذور التشيع)، لكن الصوفية يستعملون كلمة الكشف أكثر من كلمة الوحي والعرفان، وإن كان مرادهم واحد، فالكشف عندهم هو سبيل الاستدلال، ووسيلة أصح وأقوى من الاستدلال ببقية الأدلة الشرعية، ففي طبقات الصوفية للشعراني كلام طويل على منهج شيوخ الصوفية واستدلالهم بالكشف، وفي كتاب الفتوحات المكية لابن عربي ما يدل على أن وسيلة الكشف طريق لتصحيح الحديث المعلول عن النبي صلى الله عليه وسلم، فقد تكون العلة بضعف الحديث بسبب رواته، ولكن وسيلة الكشف توصل الشيخ إلى حقيقة المعنى الذي أراده النبي صلى الله عليه وسلم.

فعن طريق الكشف يدعون تلقيهم أمر الله عن طريق الإسراء والمعراج، أو عن طريق ادعائهم برؤية الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد أمرهم بذلك في اليقظة أو الحلم. يحصل الكشف عند بعض الصوفية والشيعة الإمامية عن طريق الإلهام الرباني، ولا يشبه الإلهام عند الأنبياء عن طريق الوحي والإلهام عند الصوفية والشيعة الإمامية، فالإلهام عند الصوفية والشيعة الإمامية يجري عن طريق نور يقذف في القلب، أو ما يعبر عنه بعض الشيعة الإمامية (نكت العلم بالقلب)، هذا إضافة إلى ما يدعونه بوراثة أئمتهم العلم عن الرسول صلى الله عليه وسلم. وأورد الكليني في كتابه (الكافي): أن العلم والمعرفة عند أئمتهم «علمنا غابر ومزبور، ونكت في القلوب، ونقر في الأسماع»، وقال: «أما الغابر فما تقدم من علمنا، وأما المزبور فالعلم فيما يأتينا، وأما النكت في القلوب فإلهام، وأما النقر في الأسماع فأمر الملك»[1].

ويدعي أيضًا الشيعة الإمامية أن لديهم علومًا غيبية مستورة محفوظة بما يسمونه علم الجفر (الأحمر- الأبيض) والجامعة ومصحف فاطمة.

(١) الكليني (١/٣١٨- ٣١٩).

ويدعي محمد بن الحسن الطوسي في كتابه (الإمامة): أن الإمام جعفر علمه بالإلهام والسماع، وربما كانا جمعيًا، وقد يحصل عند شيوخ الصوفية وبعض الشيعة العلم كما يدعون عن طريق المنامات والأحلام.

ويعقد كثير من الصوفية بابًا للكشف عن طريق الرؤى والمنامات في كتبهم، كما هو مثلاً في الرسالة القشيرية، وعند أكثر الشيعة الإمامية: أن منامات ورؤى الإمام المعصوم تعد من قبيل الكشف والإلهام، الذي يقترب من الإيحاء به من الله؛ ولذا فهو واجب الاتباع شرعًا.

٢. فكرة النفس والعقل عند أفلاطون

يرى أفلاطون أن للنفس البشرية حياة سابقة عن حياة البدن، حيث كانت النفس تعيش في العالم المنزه عن الحس، ولكن النفس أصابها العقاب، حينما حلت في بدن مركب من طبيعة عالمنا الأرضي.

ويرى أفلاطون أن البدن سجن للنفس، وهي في صراع دائم معه، وذلك لاختلاف طبيعتها؛ فالنفس عنده تعيش في عالم المثال، بينما البدن يعيش في عالم الشهوة والعقل، والحكمة هي المرجح بين عالم المثال وعالم الشهوات.

فهذا الصراع الذي صور أفلاطون اتسع عند الصوفية ونادوا بتهذيب النفس عن طريق تعذيب البدن بالزهد والصيام والعبادة، وقد تأثر كثير من الصوفية بفكرة وحدة الوجود والحلول الإلهي، حيث نجدها ظاهرة بتعابير وتأويلات مختلفة بشكل من فلسفة الحلاج وابن عربي والسهروردي وابن الفارض وجلال الدين الرومي وأبي يزيد البسطامي. قال أحد الصوفية شعرًا معبرًا عن فكرة الحلول الإلهي، المستقاة من فكرة وحدة الوجود

أنا من أهوى ومن أهوى أنا ... نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرته أبصرتني ... وإذا أبصرتني أبصرتنا

قد أثر عن الحلاج قوله: «إن الله في جيبي» معبرًا عن فكرة حلول الخالق بجميع الأشياء، وليس فقط في جسد الإنسان وحده، وقد ساقته هذه العقيدة إلى المحاكمة والإعدام ببغداد. كما تأثر الصوفية بأفكار الفلاسفة اليونان من المدرسة الغنوصية، فقال هؤلاء الصوفية بوجود النور المحمدي، ونسبوا حديثًا موضوعًا على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم، قوله للصحابي جابر: «نور نبيك يا جابر»[1]، وخلق بعده كل شيء، وخلق منه كل خير. وقد تأثرت الصوفية بالفلسفة الإشراقية أو ما يسمي بالأفلاطونية المحدثة التي تأثر بها الشيخ شهاب الدين السهروردي، وعنه انتقلت إلى الشيعة الإمامية.

٣. واجب الوجود عند أرسطوطاليس

بالرغم من كون الفلسفة اليونانية عمومًا فلسفة وثنية، إلا أن أرسطوطاليس عبر عن الخالق بعبارة واجب الوجود، وهو الموجود بذاته، ولهذا فهو كامل بذاته، تنظر له المخلوقات بأنه المثال الكامل، فتدور حوله دوران العاشق حول معشوقه، وهذه الفكرة انتقلت إلى الصوفية بما يسمونه بالحب الإلهي، فالشيخ الصوفي حينما يسلك طريق الحب الإلهي ليصل إلى معشوقه إلى درجة الاتحاد بالخالق، وفي المقابل أن الله في هذه الحالة قد حل بالشيخ، وأصبحت نفسه مسايرة لمعشوقها نابذة لنداء بدنها.

٤. فيثاغورس وعالم المعرفة

يرى الفيلسوف اليوناني فيثاغورث أن المعرفة هي سبيل ترقية النفس وصدها عن مؤثرات العالم الخارجي، ومجاهدة النفس عنده بالمعرفة والتفكير هي أهم ما يوصلها إلى العالم المثالي العلوي الواجب الوجود.

ويرى فيثاغورس أن العزلة والخلوة هي السبيل للمعرفة؛ ولذا كان يحث تلامذته على الخلوة والانقطاع والبعد عن الناس وملذّات الدنيا، وكانت هذه الأفكار قد استعارتها

(١) قال الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٥٧/١): وفيه إشارة إلى بطلان الحديث المشهور على ألسنة الناس: «أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر». و نحوه من الأحاديث التي تقول بأنه صلى الله عليه وسلم خلق من نور، فإن هذا الحديث دليل واضح على أن الملائكة فقط هم الذين خلقوا من نور، دون آدم وبنيه، فتنبه ولا تكن من الغافلين.

الطرق الصوفية، وظهرت عندها بمظاهر مختلفة كخلوة الشيخ ومريديه، والتركيز على تهذيب النفس، كما سنرى ذلك عند بعض الصوفية.

أهم مصنفات السهروردي

١. حكمة الإشراق: أكثر كتاباته كانت متأثرة بالفلسفة اليونانية، وبذات الفلسفة الأرسطية، التي سبقت الإشارة إليها.
٢. هياكل النور السبعة: هو عبارة عن عملية بناء الإنسان ككائن متكامل بالعقل والتجربة الروحية، التي تسير بشكل متوازن: الترقي الروحي التي منها يصل السالك إلى نور الأنوار.

كتب الحلاج

كتاب الطواسين كتبه في سجنه ببغداد، وأودعه أحد مريديه، والكتاب يحتوى على ثلاثة مضامين:

الأول: عبارات لغوية مفهومة، وتشيع عادة في كتب الصوفية في دلالتها ومعناها.

والثاني: يبدو أنه موجه إلى مريديه وتلامذته، حيث يحتاج في فهمه التأويل الباطني، سواء القريب أو البعيد.

والثالث: عبارات غير مفهومة، فهو عبارة عن لغة استخدم من خلالها إشارات مائلة الأسهم: صاعدة أو نازلة، والدوائر والمربعات التي أدخل بها حروفًا أو عبارات غير مفهومة، وربما كانت موجهة لمن يعلمها، أو أضافها عليها صوفية بغداد بعد ذلك.

بعض آراء الحلاج

أهم آراء الحلاج التي أدت إلى محاكمته وقتله ببغداد سنة ٣٠٩هـ، هي فكرة الحلول والاتحاد، وقد كان الحلاج قد رحل إلى الهند والصين قبل أن يلتحق بشيخه الصوفي ببغداد الشيخ الجنيد، ولما بدأ الحلاج يصرح بآرائه الصوفية هذه، واعتبر غير محافظ

على أسرارها طرده شيخه الجنيد من بين مريديه، وأضحى مكشوفًا لنقد العلماء ومراحل أفكاره:

أولاً بالنسبة للفقه الشرعي ليس ضروريًّا لمن سلك طريق التصوف، أن يؤدي الصلوات الخمس، أو أن يحج إلى مكة، فتلك فرائض على العامة قصد بها ردهم عن السوء، و لما كان الصوفي قد اتحد بالخالق، والخالق أيضًا قد حل به، فلا يمكن لمثله أن يأتي بما يشين. ومن آراء الحلاج التي أثرت في بعض الشيعة الإمامية تأويله لمعاني الحروف والإشارة وقد تأسس في الحلة بالقرن السادس الهجري ما يعرف بمدرسة الحروفيين عند الشيعة الإمامية، وسنفصل الحديث عنها وعن شيوخها في مكانه.

obeikan.com

الفصل الخامس

ما أخذه الشيعة من الديانة الفارسية القديمة

وهذه الديانة تجملها المصادر العربية بالمجوسية، وهي الديانة الزرادشتية وما لحقها من تعديلات أو إضافات على يد من يعتقد أنهم مصلحون: كالفيلسوف الفارسي مانو ومزدك الذي نادى قبل أفلاطون بإباحة النساء والأراضي والأموال، لأنها الأسباب الرئيسة للاقتتال بين البشر.

وتعتمد الديانة الزرادشتية على فكرة إله النور وإله الظلام (اوهرا مزدا)، ولا تعتقد هذه الديانة بوجود يوم القيامة، وأن الحساب والثواب إنما يتم في أثناء دوران السنين التي اختلفوا في عدها، فروح الميت إن كانت صالحة أخذت جزاءها عن طريق الحلول بطائر فرح مغرد. وإن كانت لشخص شرير حلت بحيوان متعب كالحمار أو الكلب. وعند هذه الفلسفة ظهرت فكرة التناسخ؛ فالإنسان لِسَبَب قد ينسخ على صورة قرد أو ما أشبه.

و مظاهر أثر هذه الديانة في كل من الصوفية والشيعة الإمامية تظهر فيما يأتي:

أولاً: المناداة بفكرة الحلول، حيث يدعي أكثر شيوخ فرق الصوفية بأن الله قد يحل في شيخهم بعد وصوله وترقيه بالمراتب العليا، وقد يدعي بعضهم الوصول إلى عرش الرحمن، وتلقي نور الحكمة من الخالق الديان.

واعتقدت الديانة الفارسية القديمة أن ملوكهم قد تناسلوا من الآلهة، وأن لهم صفة القدسية، وأنهم ليسوا كسائر الناس، ولهذا يخاطبونهم الشاه، سواء بالقول أو الكتابة: يا إلهنا؛ فيعظمون ملوكهم بالألقاب والصفات الإلهية، وكذا يعظم الفرس رجال الدين، ويعتقدون أن فيهم صفات عليا، مستقاة من عبادتهم النار بوصفها رمزًا لإله النور. والنار ومعابدهم لا تخبو نارها ولا تخلو من عابد.

وقد ذكر أن الخليفة الرشيد حينما حاكم البرامكة (وهم فرس في الأصل) كان في التحقيق الذي أُجري مع بعضهم في التفتيش الذي تم في بيوتهم عثر على رسائل باللغة الفارسية موجهة إليهم من فارس، يخاطب فيها كاتبها الوزير البرمكي: يا إلهنا. ولم يشفع للبرمكي القول: إن الفرس كانوا قد اعتادوا مخاطبة العظماء بهذا الشكل.

من تأثر بالديانة الفارسية

إن القبائل العربية التي سكنت العراق قبل الإسلام كانت تحت النفوذ الفارسي، ومثلها مثل القبائل اليمنية قبل الإسلام، ولهذا كثير من القبائل أو بعض منها قد تأثر بالديانة المجوسية، فإذا أخذنا الحيرة مثالاً على ذلك، فإننا نجد حتى رياح التغير المذهبي بفارس تتأثر بها الحيرة، فبعد انتشار المانوية بفارس وغلبتها على الزرادشتية، نرى أن الحيرة تستجيب لهذا التأثير، فقد ذكر أن ملك الحيرة عمرو بن عدي اعتنق المانوية فآوى كثيرًا من مانوية الفرس، وذلك بعد رجوع الفرس إلى الزرادشتية، وسجن ملك الحيرة هذا من قبل الملك الفارسي

المجوسية في الحيرة

لقد اتخذ الملوك الساسانيون المدائن في العراق عاصمة لهم، وهي لا تبعد كثيرًا عن الحيرة والكوفة من حيث مؤثرات الديانة الفارسية، فما يحصل في المدائن قديمًا تجد صداه في الحيرة خاصة من قبل ملوك و أمراء الحيرة الذين هم في الأصل صنائع للدولة الفارسية.

لقد كانت التعاليم الزرادشتية هي السائدة في الديانة المجوسية، فجاء ماني بمذهبه الذي نادى بوجود إله النور والظلمة، وأن كل شيء سيئ هو من دوافع إله الظلام، أما إله النور فهو الذي يدعو إلى حميد الصفات، فتأثر ملك الحيرة عمرو بن عدي بالمانوية، فلما عدل الملك صابور الأول عن المانوية، قام بسجن ملك الحيرة بسبب ما نويته، ولما تفشت المزدكية في فارس والمدائن وجدت لها صدى في الحيرة أيضًا، خاصة وقد نادى بإشاعة النساء وملكية الأرض والمال وإباحة المحارم.

فكان لهذا المذهب وآرائه أثر كبير حتى بعد دخول سكان تلك المنطقة إلى الإسلام، حيث يظهر لنا في القرن الثاني الهجري بعض المذاهب الإباحية، التي تأثر بها بعض فرق الشيعة، التي ذكرها المؤرخ النوبختي في كتابه فرق الشيعة، كما ذكرها كثير من أصحاب مؤلفي الفرق، ومن ذلك الصدى الذي لقيته الحيرة من المزدكية هو اعتناق الحارث الكندي لهذا المذهب، وتذكر المصادر العربية تفشي الديانة المجوسية في كل مكان من نجران وهجر (الأحساء) والقطيف والبحرين وزرارة ودارين.

فكرة الحلول

أصحاب الحلول أو الاتحاد يعنون بذلك أن الإله أو جزء منه قد حل أو اتحد بشيء من مخلوقاته، وبعض أصحاب الحلول يَرَوْن المرور بأدوار مختلفة مع كل دور رسول ناطق، والظهور الأول كان في آدم، وهو الرسول الناطق، ثم انتقلت الألوهية إلى سلم النبوة إلى نوح، ثم انتقلت الألوهية إلى إسماعيل والنبوة إلى إبراهيم، ثم الألوهية إلى هارون والنبوة إلى موسى، ثم انتقلت في تمعون الصفا المعروف عند النصارى ببطرس والنبوة إلى عيسى، ثم ظهرت النبوة أخيرًا في علي بن أبي طالب والنبوة في محمد. وعلى هذه الأدوار عندهم إنما كانت أداة يستجيب وراء تلك الحجج الأرضيّة، والقائلون بفكرة الحلول ينقسمون إلى قسمين: طائفة قالت بالحلول الخاص، بمعنى أن الله يحل في الجسد (حلول اللاهوت بالناسوت)، وهو قول النصارى وبعض الشيعة وبعض الصوفية. والقسم الثاني: يؤمن بالحلول العام أي أن الله بذاته في كل مكان، وبكل شيء وهم الصوفية والجهمية.

وأشهر القائلين بالحلول الخاص هم السبئية، التي تنسب لعبدالله بن سبأ اليهودي، حيث نادى بألوهية الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه على تفصيل أن للإمام صفتين: صفة اللاهوت، وصفة الناسوت. كما تدعي اليهودية والنصرانية في أنبيائها. وتأول القائلون بالحلول بالآيات التالية:

١. آيات تدل على معية الخالق مع العموم

قوله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ طه: ٤٦، وقوله: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ التوبة: ٤٠،

وقول تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ البقرة: ٢٤٩،

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ محمد: ٣٥،

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ النساء: ١٠٨، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ الشعراء: ٦١ – ٦٢،

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ﴾ الحديد: ٤، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ﴾ المجادلة: ٧.

٢. كما احتجوا بالآيات التي تذكر مجيء الخالق وإتيانه العبادة

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ﴾ الأنعام: ٣، وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ الأنعام: ٣، ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ الحجر: ٢٩،

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ﴾ الزخرف: ٨٤، ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ الحديد: ٣.

٣. الأحاديث التي تداولها من قال بالحلول

١. قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «خلق الله آدم على صورته، طوله ستون ذراعًا، فلما خلقه قال: اذهب فسلم على أولئك النفَر من الملائكة جلوس، فاستمع ما يحيونك، فإنها تحيتك وتحية ذريتك. فقال: السلام عليكم. فقالوا: السلام

عليك ورحمة الله. فزادوه: ورحمة الله. فكل من يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينتقص بعد حتى الآن»[١] أخرجه البخاري.

٢. وقول الرسول صلى الله عليه وسلم «إنكم سترون ربكم، كما ترون القمر ليلة البدر، لا تضامون في رؤيته»[٢] رواه البخاري

٣. قوله صلى الله عليه وسلم: «أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب. فقال: وما أكتب؟ فقال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة»[٣] أخرجه أبو داود.

كما تأولوا كثيرًا من الأحاديث الضعيفة، ليس هنا مكان بحثها، والحقيقة أن أصحاب الحلول والتناسخ قد جانبوا الصواب في فهمهم وتأويلهم للآيات القرآنية التي ذكرناها، وكذلك الأمر في الأحاديث المذكورة، وليس من شأن هذا البحث الدخول في تفصيل ذلك، وأن ما أوردناه قصدنا به معرفة القارئ الكريم كيف تشبث بعض الضالة من المسلمين في تأويل بعض آيات القرآن الكريم أو أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، مدفوعين بدوافع فكرية، ومؤثرات من عناصر أجنبية، قالت بالتناسخ والحلول، على التفصيل الذي أوردناه في هذا البحث.

٤. معنى تناسخ الأرواح

والقائلون بالتناسخ من مذاهب شتى يتفقون بشكل عام على معنى التناسخ، وما يفضي إليه فهو:

١. إنكار يوم الحشر والمعاد واليوم الآخر والإيمان بالبعث والحساب والجزاء والجنة والنار، خلاف لما ورد ذلك في كتاب الله وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم.

٢. وبعضهم قصد أن معنى تناسخ الأرواح هو فقط الجزاء في الدنيا، وأنكر المعاد، وذلك حسب الأعمال الصالحة والفاسدة[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠/٨ رقم٦٢٢٧)، ومسلم (٢١٨٣/٤ رقم٢٨٤١).

(٢) أخرجه البخاري (١١٥/١ رقم٥٥٤)، ومسلم (٤٣٩/١ رقم٦٣٣).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٦٢/٤ رقم٤٧٠٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم٢٠١٧).

(٤) د. محمد بن العزيز بن أحمد العُلى: عقيدة الحلول والتناسخ عرضًا ونقضًا، دار الصميعي للنشر، الرياض، ط ١ ١٤٣٠هـ (ص ٢٩٩)، وما بعدها.

فكرة التناسخ

استدل من يؤمن بفكرة التناسخ متأولين ببعض الآيات القرآنية فيها:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ البقرة: ٢٨، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ البقرة: ٦٥، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ النساء: ٥٦، وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ المائدة: ٩٣، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ الأنعام: ٣٨، وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ الأنعام: ١٥٨، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ الأعراف: ١٧٢، وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ التوبة: ١٢٥.

وقوله تعالى: ﴿۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ﴾ الإسراء: ٥٠ - ٥١، وقوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ الإسراء: ٧٢، وقوله تعالى: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ طه: ٥٥، وقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ الروم: ١٩، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ فاطر: ٣٧، ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ الشورى: ١١، ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ الأحقاف: ١٩، ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ الواقعة: ٦٠ - ٦٢، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ الانفطار: ٦ - ٨، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ التين: ٤ - ٦.

واحتجوا أيضا بالأحاديث التالية: «الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»[١] رواه البخاري. وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه»[٢] رواه ابن ماجه.

فكرة التناسخ عند الصوفية

يؤمن بعض فرق الصوفية بما يسمى بتناسخ الأرواح، وأنها تبتدئ بدخوله روح الجني بإنسان، فيتكلم بلسان الجني، وقد تطول الحالة، فيختفي هذا الإنسان وينقلب جنيًّا، وتدور عند بعض الصوفية خرافات ومعجزات بخروج الجان من البحر، وأن هؤلاء كانوا في الأصل رجالًا.

فكرة النور المحمدي

ليس بعيدًا أن تكون الفكرة التي قال بها بعض الصوفية وخاصة الختمية- لها علاقة بفلسفة الديانة الزرادشتية القائلة بالنور والظلمة كما سبقت الإشارة، وأن إله النور قد غلب إله الظلام؛ فحل إله النور بالإنسان وبأصلابه، واستعار الشيعة هذه الفكرة، وادعوا كما ورد في أحد الأحاديث المنسوبة إلى الإمام الصادق أن الرسول صلى الله عليه وسلم وفاطمة وعليًّا والحسن والحسين وبقية الأئمة قد خلقهم الله من نور، ووضعهم في عالم الذر، وعلقهم تحت العرش قبل أن يخلق آدم بألفي عام، وأنهم وشيعتهم مخلوقون من تلك الطينة النورانية، التي ينتج عنها كل عمل طيب، أما بقية الناس والمخالفون فهم مخلوقون من طينة آدم حمأًّ مسنونًا، ينتج منه الأعمال السيئة، وكل هذا يدور حول فكرة الحلول والتناسخ.

فكرة الحلول والتناسخ عند الشيعة الإمامية

تؤكد روايات الشيعة الإمامية الواردة في كتاب (الأنوار النعمانية) للجزائري، وفي كتاب (بحار الأنوار) للمجلسي وغيرهما من المصادر: أنها تصف الإمام عليًّا بأوصاف

(١) أخرجه البخاري (٤/١٣٣-١٣٤ رقم٣٣٣٦)، ومسلم (٤/٢٠٣١ رقم٢٦٣٨).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢/٨١٧ رقم٢٤٤٣)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (رقم ١٠٥٥).

خارج آدميته، وتدخله بصفات الملائكة أو بصفات الخالق، فهو النور المحمدي هو وبقية الأئمة، فهم الروح المصطفاة، والكلمات التامات، وحجة الله الكاملة على خلقه، فهم من نور أخضر، حيث لا شمس ولا قمر ولا ليل ولا نهار ولا مخلوقات.

و يصفون الإمام عليًّا بأنه صاحب الرسالة، وصاحب الوصولات، وصاحب الانتقامات، وهو حصن الحديد، وهو أمين الله على علمه، وصندوق سره، وحجابه، وصراطه، وميزانه، وكلمته، وهو دابة الأرض، ومعه عصا موسى، وخاتم سليمان، وخاتم أوصياء النبيين وأورثهم، وخليفة الله على العالمين، وهو الذي علمه الله علم البلايا والمنايا والرياح والجبال والبحار والشمس والقمر والنجوم، وقد استعار بعض رجال الشيعة من الإصحاح الثامن عشر سفر (تثنية الاشتراع) عند اليهودية فكرة وصية موسى إلى يوشع بن نُون، حيث وصي محمد صلى الله عليه وسلم، واستعاروا فكرة النقباء الاثني عشر بعد موسى في بني إسرائيل إلى فكرة الأئمة والأوصياء الاثني عشر عند الشيعة الإمامية.

وقالت الشيعة بما قالت اليهود المتعلقة بانتقال النور من وصي إلى آخر بعد موته، والتي أعطوها بعدًا إلهيًّا، فكذلك يقول الشيعة بما يشبه فكرة تناسخ الأرواح، حيث تنتقل الإمامة عن طريق تلك الأنوار إلى الإمام الذي يليه.

ورد في كتاب (حق اليقين) رواية لحديث عن جعفر الصادق قوله:

«يا معشر الخلائق ألا من أراد أن ينظر إلى آدم وشيث، وينظر إلى نوح وولده سام، وينظر إلى إبراهيم وإسماعيل، وينظر إلى موسى ويوشع، وينظر إلى عيسى وشمعون، فها أنا ذا؛ وأجيبوا إلى مسألتي، فأنا أنبئكم بما تنبئهم به وما لم تنبؤوا به»[1].

فإذا أضيفت إلى هذه الرواية الروايات الواردة في الكافي، التي تفيد بأن نفوس الأئمة اختلطت بالخالق، فمن باب أولى أن الإمام وروحه مستنسخة من بقية الأنبياء، وهذه تتفق مع فكرة الحلول الإلهي، التي وجدت في الأديان الهندية، وقال بها المتصوفة.

(١) حق اليقين (٢/٣٦-٣٧).

تقديس رجل الدين

وفكرة تقديس الشيوخ عند الصوفية واضحة لا تحتاج إلى إثبات، فشيخ الطائفة ينظر إليه بوصفه كائنًا مختلفًا عن سائر الناس، فالمعجزات التي تجري على يديه تجعل مريديه وتلاميذه يطيعونه طاعة عمياء.

فأقواله دومًا صائبة لا يستطيع أحد أن يخطئها، وأعماله وتصرفاته دومًا صحيحة، وإن بدا بعضها في ظاهرها نابيًا.

أما الشيعة الإمامية فإن تقديس رجل الدين عندهم واضحًا في التعامل إلى اليوم، يدل على ذلك مظاهر الخضوع وتقبيل اليدين، وقد تصل الحال إلى تقبيل الأرض بين يديه عند الغلاة منهم.

وقديمًا تأثرت بعض فرق الشيعة القديمة والمندرسة بالديانة المزدكية والمانوية، فأحلوا المحرمات.

ومن مظاهر تقديس الأئمة الادعاء بأنهم معصومون عن الخطأ والنسيان، بل ادعى بعضهم أن للإمام القدرة على إحياء الموتى، وإبراء الأكْمَه والأبرص، ومعرفة لغة الطير، ويجد الباحث في كثير من كتب الشيعة الإمامية ككتاب (الاختصاص) للشيخ المفيد محمد بن نعمان (م ٤١٣هـ). مثل هذه الأفكار.

ويدَّعي كل من الصوفية والإمامية بأن شيوخهم يحتفظون بالأسرار والغوامض، وأن لهم القدرة على كشف الحجب والأستار وفك الأسرار، وغوامض الأمور، وكلها دعاوى تدور حول تعظيم الشيخ أو الإمام في عيون الناس.

وعند الشيعة الإمامية أن شيعتهم عبيدًا للإمام في الطاعة، وأولياء في الدين، كما نقله مصدرهم عن الإمام الرضا، ولهذا فكثير منهم يسمي نفسه عبدًا لأحد الأئمة الاثني عشر: كعبدالحسين.

كما اتفق الفريقان على انتحال صفات الله لأوليائهم وأئمتهم، فالإمام أو الولي وجه الله وعينه، ونقل الإمامية أن معنى قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ الأعراف: ١٨٠، عن الإمام جعفر أنهم هم

الأسماء الحسنى، كما أورده الكليني في الكافي، ويقول الشيخ المفيد في كتابه (عقائد الإمامية): إن الأئمة معصومون عن الخطأ والنسيان.

وجملة القول كما أشرنا: أن الصوفية والشيعة الإمامية يتفقون في جملة كثيرة من الصفات المتعلقة بتقديس شيوخهم، وأئمتهم والاختلاف بينهم يجري باختلاف التعابير والتأويلات، التي يفسر بها كل فريق إمامه أو شيخه، ويمكن حصر تلك الصفات فيما يلي:

١. الأئمة والأولياء لهم الدنيا والآخرة، ويتصرفون في الكون كيف شاؤوا.
٢. الأئمة والأولياء حل بهم جزء من النور الإلهي.
٣. القدرة على الإحياء والإماتة.
٤. علم الغيب.
٥. نزول الوحي عليهم.
٦. مناجاتهم لله عز وجل دون واسطة.
٧. الإمامة والولاية هما أصل النجاة وأساس قبول الأعمال.
٨. اعتقاد الإمامة والولاية هو سبب عفو الله ومغفرته، وإنكارها هو سبب سخط الله وعقابه.
٩. لا هداية للناس إلا بالأئمة والأولياء.
١٠. الحج إلى المشاهد المقدسة والأضرحة عندهم أعظم من الحج إلى بيت الله الحرام.
١١. الإمام أو الولي يُحرم ما يشاء ويحلل ما يشاء.
١٢. الناس عبيد للأئمة والأولياء.
١٣. الأئمة والأولياء لهم الخيار في أن يبينوا للناس أمر الدين أو أن يكتموه.
١٤. الأئمة والأولياء هم أسماء الله وصفاته
١٥. اختصاص الأئمة والأولياء بعلم الباطن.
١٦. العصمة أو الحفظ للأئمة والأولياء.
١٧. عدم خلو الأرض منهم.
١٨. وجوب معرفتهم.
١٩. الأئمة والأولياء ولاة الله، وخزنة علم الله وغيبه، ووحي الله.

obeikan.com

٢٠. الأئمة والأولياء يعرفون جميع الألسن واللغات، وحتى الطيور والوحوش.
٢١. وجوب التوسل والاستغاثة بهم.
٢٢. الإمام والولي أفضل من الرسول والنبي[١].

مراتب شيوخ الصوفية والشيعة

يتفق الفريقان في إضفاء درجات أو مراتب لشيوخهم، وإن كانوا يختلفون في المسميات، وفي مهام وأدوار كل مسمى،

فعند الصوفية يذكر ابن عربي في كتابه الفتوحات المكية أن مراتب الصوفية، هي:

١. الأقطاب: هم واحد في كل زمان.
٢. الأئمة: هم لا يزيدون عن اثنين في كل زمان.
٣. الأوتاد: هم أربعة في كل زمان.
٤. الأبدال: هم سبعة.
٥. الختم: هو واحد فقط، يختم به الولاية المحمدية.
٦. ثلاث مئة: على نفس واحدة.
٧. أربعون شيخًا: على قلب رجل واحد.
٨. سبعة: على قلب إبراهيم الخليل عليه السلام.
٩. خمسة: على قلب جِبْرِيل.
١٠. ثلاثة: على قلب ميكائيل.
١١. واحد: على قلب إسرافيل عليه السلام. ثم ذكر ابن عربي أن فرق الصوفية مجمعة عمومًا على أن مراتب الشيوخ، هي: ست طبقات أمهات، وهي أقطاب وأئمة وأوتاد وأبدال ونقباء ونجباء.

وعند الشيعة الإمامية: أن أي زمان لا يمكن أن يخلو من إمام ظاهرأو مستور، ولو خلت الأرض من الإمام لساخت على حد تعبير إحدى الروايات عندهم.

(١) يراجع في تفصيل ذلك خاصة المتعلق بالشيعة الإمامية كتابنا (جذور التشيع)، وخاصة ما كتبناه عن علاقة الإمام جعفر الصادق بأتباعه، أما ما تعلق بالصوفية، فانظر: كتاب زياد عبدالله الحمام: العلاقة بين الصوفية والإمامية، (ص ٢٧٥- ٣١٨).

obeikan.com

وهذه المرتبة للإمام الذي يدعونه بالمهدي المنتظر، هي المرتبة نفسها التي عند الصوفية عمومًا، والمسماة بالغوث، حيث إن وظيفته مشابهة لوظيفة الإمام المهدي بشكل عام.

أما المراتب الدينية عند شيوخهم، فتبدأ عمومًا بالواعظ، ثم ثقة الإسلام، ثم حجة الإسلام، ثم حجة الإسلام والمسلمين، ثم آية الله، ثم آية الله العظمى، وأخيرًا: نائب الإمام المهدي المنتظر.

ولكل فرقة من الصوفية عمومًا مبتدعاتها وأساليبها في ترتيب سلم المريدين، ففي الطريقة البكتاشية تبدأ بالعاشق، ثم الطالب، ثم المحب، ثم الدرويش، ثم البابا، ثم الددة، ثم الددة بابا.

أما منهجهم في تفسير القرآن، فيعتمد على ما يسمونه الصوفية بالإشارة، أي أنهم يعتمدون لا على المعنى الظاهر، وإنما يدعون بأن النص يشير إلى معنى باطن، كما هو الحال عند المدرسة الغنوصية، ومنهج الفيلسوف الإسكندر اليوناني أفلوطين.

ونتيجة لهذا المنهج ظهر ما يسمى عند الصوفية بالحقيقة والشريعة، فالحقيقة عندهم هي المعنى الذي يورده شيخهم على النص، بناءً على رغبته أو أحلامه أو دعوته، و أن الله أشار به تلميحًا لا تصريحًا، وهذه الحقيقة إنما هي لخواص الصوفية، أما الشريعة فهي لعوام الناس، يستقونها من المعنى الظاهر للنص.

واحتج بعض الصوفية لهذا المنهج، لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ النساء: ٨٣، ويقسم ابن عربي الرجال أربعة: رجال لهم الظاهر، ورجال لهم الباطن، ورجال لهم الحد، ورجال لهم المطلع، وزعم أنه ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم: «أن ما من آية إلا ولها ظاهر وباطن، وحد ومطلع»[1].

(١) انظر: إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي (٦١/٢).

ويلتقي الشيعة الإمامية بالصوفية في دعواهم الباطنية؛ فالفريقان قالا: إن الله سبحانه أنزل على نبيه أولاً الشريعة لعموم الناس، ثم أنزل الحقيقة وحيًا على نبيه مقام الرسول صلى الله عليه وسلم، بأن خَص الحقيقة، وبلغها لعلي رضي الله عنه، وعلي أبلغها لأبنائه الحسن والحسين وبقية الأئمة.

و يشبه الإمامية الصوفية في عدم عنايتهم بالقرآن وحفظه وتلاوته، والاستدلال بمعانيه، وقد وصل الحال ببعض الشيعة الإمامية إلى القول بتحريف القرآن الكريم زيادة أو نقصانًا، وقد عالجنا ذلك في كتابنا (جذور التشيع) بالتفصيل، ومن أمثال ذلك تأويل الصوفية الباطني للقرآن الكريم ما ذكره ابن عربي في تفسير قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ النبأ: ١ - ٢، أن النبأ العظيم هو القيامة الكبرى، ولهذا قيل: إن أمير المؤمنين عليًّا هو النبأ العظيم، وملك نوح على جامع بين الحقيقة والشريعة[1].

وقد تأثرت الشيعة الإمامية بالتفسير الباطني، فالأحاديث الواردة في كتاب (الكافي) للكليني تذكر أن من صفات الأئمة معرفة الغيب، واحتج بعض مفسريهم بالآية الكريمة، قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ الجن: ٢٦ - ٢٧،
والرسول محمد صلى عليه وسلم قد أدلى بغيبيات كثيرة، للإمام علي، وعليٌّ أدلى بها إلى بقية الأئمة.

وفي كتاب (الاختصاص) للشيخ المفيد، وفي تفسير القمي إشارات وتأويلات باطنية كثيرة، نقلها كثير من مفسري الشيعة الإمامية، كما هو في تفسير التبيان للطبرسي، وتفسير شُبر وتفسير القمي وغيرهم مما لا داعي للاستغراق في ذكره.

ومن مظاهر تأثير الديانة الفارسية القديمة في كل من الصوفية والشيعة الإمامية، بأن الأئمة معصومون من الخطأ والزلل والنسيان، وقد وصل الفريقان في شيوخهم إلى الغلو فيهم.

(١) تفسير ابن عربي (٢/ ١٨٤)، عن كتاب العلاقة بين الصوفية والإمامية (ص ١١٩).

فعندهم: من لا شيخ له لا دين له، وأن الاعتراض ومناقشة الشيخ نوع من العصيان، والمريد عند الصوفية مسلوب الإرادة، فلا اختيار له غير مطاوعة شيخه، وهذا ما عبر عنه السهروردي في كتابه (آداب المريدين)[١].

واستدلوا بوجوب طاعة المريد لشيخه بظاهر الآية الكريمة: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ﴾ الإسراء: ٧١، وكتب بعض غلاة الصوفية كتبًا عن شيوخهم، فرفعوهم إلى درجات تخرجهم عن صفاتهم الآدمية، وتدخلهم في الشرك، حيث انتحلوا لشيوخهم صفات الخالق سبحانه في الكمال وعلم الغيب، وكذا صفات الأنبياء من الوحي والعصمة، ومثال ذلك ما كتبه محمد بن عبدالله بن أسعد اليافعي اليمني في كتابه (نشر المحاسن الغالية في فضل المشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية).

وكل ما أوردناه من الأفكار المتعلقة بدرجات رجال الدين وعصمتهم، لا يمكن فصله عمَّا ورد في الديانة الفارسية القديمة على التفصيل الذي ذكرناه سابقًا.

ما اتفق فيه الشيعة الإمامية والصوفية

أولاً: في مسائل الاعتقاد يقترب الشيعة الإمامية من مفاهيم الصوفية المتعلقة بالتوحيد والإيمان، وفكرة النور المحمدي وفكرة الولاية وفكرة الرجعة والأئمة والأولياء، وفكرة الوحي وفكرة النبوة، ولكن كل منهما في شرحه وجزئياته قد تختلف عن الآخر، في التعبير أو التفسير، ولكنهم في الحقيقة قد يلتقون حول مفهوم واحد، لكن أهم نقاط الالتقاء هي فكرة وحدة الوجود، ونراها واضحة فيما كتبه كل من النراقي والكاشاني، ففي كلامهما التقاء واضح بأفكار ابن عربي، وخاصة فكرة وحدة الوجود، كما يلتقي الفريقان أو بعضهم بفكرة إحياء الموتى من قبل الولي أو الإمام، نقل المجلسي في (بحار الأنوار) أن الإمام الحسين رضي الله عنه أحيا امرأة بعد موتها، لكي توصي لورثتها، ثم ردت إلى عالم الأموات[٢].

أما موضوع علم الولي أو الإيمان بالغيب فكتب الفريقين مليئة بهذه الدعوى، وفي كتاب الاختصاص للشيخ المفيد الكثير من تلك الادعاءات.

---

(١) ضياء الدين السهروردي: آداب المريدين، (ص ٦٦).

(٢) المجلسي: بحار الأنوار، (١٨٠/٤٤).

وعند الرفاعية تظهر قرية أم عبيدة في طور سيناء، مقدسة أرضها تحفظها الملائكة، وطلب شيخ الطريقة من أتباعه زيارتها، والتبرك بها كمن يتبرك بالكعبة المشرفة، فكان الرفاعية يحجون إليها، وهذا نفس ما عليه الحال عند الشيعة الإمامية بالنسبة إلى تقديس كربلاء وأرضها، وزيارة قبر الحسين كما من حج إلى مكة.

قطع يد السارق من الأصابع

تذهب غالبية مذاهب الفقه الإسلامي إلى أن عقوبة السارق تكون بقطع يده من الرسغ، تنفيذًا للآية الكريمة: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ المائدة: ٣٨، ولكن كتب فقه الشيعة الإمامية تذهب إلى أن القطع لليد يتم من الأصابع، خلافًا لبقية المذاهب، ويمكن أن يعد ذلك من أثر قانون حمورابي في وادي الرافدين، أو من الأثر الفارسي الخاص بالقانون الساساني المتعلق بـ(التسع الموتات)، فإن من أولها أن يقوم الجلاد بقطع الكعبين، ثم الذراعين حتى المرفقين، ثم الساقين حتى الركبتين[١].

إعارة الفرج

حتى فقه الشيعة الإمامية لم يسلم من مؤثرات الديانة الفارسية، ففي العصر الساساني للشخص أن يتزوج من امرأة من الدرجة الثانية، حيث يجيز القانون الساساني لزوجها أن يعيرها لصديق له محتاج، والنسل يرجع إلى هذا الزوج[٢].

وفي كتب فقه الشيعة الإمامية جواز إعارة فرج جاريته التي يملكها، وذلك لشخص آخر، قيل لمدة معلومة، وقيل: إن النسل ينسب لأمه، لا للشخص المعار على خلاف بين فقهاء الإمامية[٣]، ومذاهب السنة لا تجيز إعارة فرج الجارية التي يملكها.

---

(١) السيد المرتضي: كتاب الانتصار، (ص٢٦٢)، المطبعة الحيدرية بالنجف ١٩٧١م. والترجمة العربية للخشاب، (ص ٢٩٦) كرستنسس – A. Christensen L iran sour – Les sassanides

(٢) كرستنسز: إيران في العهد الساساني (ص ٢٥٢).

(٣) المجلسي: البحار، (٧٩/٢٣). ابن المطهر الحلي: إيضاح الفوائد، (١٤٥/٣) ابن بابويه: الصدوق المقنع، (١٠٦/١). الطبرسي: المبسوط، (٤/ ٢٤٦)، طهران ١٣٨٧هـ. العياشي: تفسير، (٢٣٢/١).

الفصل السادس

أفكار وعقائد للشيعة الإمامية مأخوذة من مجموعة من الديانات والفلسفات القديمة

١. فكرة عصمة الأئمة عند الشيعة الإمامية

إن نشأة التشيع سببها في الأصل سياسي متعلق بالإمامة؛ ولذا فإن الشيعة الإمامية يَرَوْن أن الإمامة ركن من أركان الدين، كما يَرَوْن أن الإمامة كانت لعلي بن أبي طالب بالنص، وبما أنه لا يوجد نص صريح في القرآن فقد تأولوا بعض آيات القرآن الكريم، كقوله تعالى لإبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ البقرة: ١٢٤. كما يَرَوْن أن النص بالإمامة جاء من النبي صلى الله عليه وسلم، مثل ما يروى في غدير خم قوله صلى الله عليه وسلم: «من كنت مولاه فعلي مولاه»[(١)]، فقد تأولوا هذا الحديث وغيره، بأن المراد به الخلافة؛ ولذا يَرَوْن أن الخلفاء الراشدين الثلاثة قبل علي غاصبون لحقه، وأن الصحابة قد كفروا بهذا، إلا أربعة: سلمان والمقداد وأبو ذَر وعلي رضي الله عنهم، وعلى هذا الأساس فإن المخالف لرأيهم هذا وبعد أن تبلغه الحجة يعد كافرًا، وهذه مع الأسف من أخطر النتائج السياسية المسببة لتفريق أمة الإسلام[(٢)].

وترتبط بفكرة الإمامة عند الشيعة الإمامية فكرة النبوة، لكن الأنبياء يوحى إليهم، في حين يأتي علم الإمام نكتًا في القلب أو وقرًا في السمع أو تسديدًا من الله؛ ولذا فإن الإمام عندهم معصوم من الخطأ والذنوب، والعصمة هذه تنتقل من الإمام إلى الذي يليه، ولهذا فإن الإمام عندهم ليس باختيار الأمة، بل هو مسمى بعينه من الله نتيجة للطف الله بالعباد، فتعيينه عند بعضهم واجب على الله، فالعصمة عند الشيعة هي: قوة

---

(١) أخرجه الترمذي (٦٣٣/٥ رقم٣٧١٣)، وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) الكليني: أصول الكافي، (١٩٩/١- ٢٠١)، محمد بن الحسن الطوسي: تلخيص الشافي، (١٣٣/١- ١٣٤)، محمد بن محمد النعمان الشيخ المفيد: كتاب الاختصاص، (ص ٣٠١).

في العقل تمنع صاحبها من مخالفة التكليف مع قدرته على مخالفته، ويعتقد بعضهم أن فكرة العصمة هذه قد نشأت كرد فعل ضد مخالفي الشيعة، وخاصة ما طالت به الإمام عليًّا، فإذا كان الأنبياء معصومين فإن الأئمة أولى بذلك منهم؛ لأن النبي معصوم بالوحي بخلاف الإمام، فعصمته كما ذكرناها آنفًا؛ ولذا فإن الأئمة عند الشيعة الإمامية أعلى مرتبة من الرسل، وتمتلئ كتب الحديث عند الشيعة بوصف الأئمة وعصمتهم وعلمهم بالمستور أو حتى بالغيب، وأنهم يعلمون جميع اللغات، ويعلمون لغة الطير، وعندهم علم البلايا والمنايا، وكل هذا من صنيع الغلاة لتثبيت مركز الإمام السياسي في أذهان الشيعة وتبرير عصمته، بل لقد قال بعض غلاتهم: إن الله قد فوض للإمام علي وإلى الأئمة بعده تدبير الكون.

ويرى بعضهم أن فكرة ولاية الفقيه التي ظهرت عند الشيعة تقلل أو تناقض أمرين في عقيدتهم: الأول هو تناقض الانتظار بظهور الإمام الثاني عشر. والثاني تناقض فكرة العصمة؛ لأن الولي الفقيه غير معصوم من جهة، وتم اختياره من الأمة، ويرون عمومًا أن فكرة ولاية الفقيه منافية لفكرة الإمامة والعصمة عندهم[١].

يوضح ابن بابويه القمي الملقب بالصدوق فكرة عصمة الأئمة بشكل واسع فيقول: «اعتقادنا في الأئمة أنهم معصومون مطهرون من كل شيء دنس، وأنهم لا يذنبون ذنبًا صغيرًا ولا كبيرًا، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون... واعتقادنا فيهم أنهم معصومون موصوفون بالكمال والتمام، والعلم من أوائل أمورهم وآخرها، لا يوصفون في شيء من أحوالهم بنقص ولا عصيان ولا جهل»[٢].

«ونقل المجلسي اتفاق الشيعة الإمامية على عصمة الأئمة من الذنوب كبيرها وصغيرها، فلا يقع منهم ذنب أصلاً، لا عمدًا ولا نسيانًا ولا خطأ في التأويل»[٣].

(١) محمد أحمد الخطيب: عقيدة العصمة بين الإمام والفقيه عند الشيعة الإمامية، الجامعة الأردنية، مكتبة الأقصى عمان ١٩٩٤م (ص١٥) وما بعدها.

(٢) ابن بابويه القمي الصدوق: عقائد الصدوق، (ص ٩٦).

(٣) المجلسي: بحار الأنوار، (٢٠٩/٢٥).

وذلك من أول ولادتهم إلى آخر عمرهم، ويناقض ابن بابويه نفسه حيث يرى وقوع السهو من الإمام، وهذا أمر مناف لفكرة العصمة، أورد ذلك في كتابه (من لا يحضره الفقيه) (٢٤٩/١-٢٥٠).

ونقل ابن بابويه في كتابه (عيون أخبار الرضا) (٢١٩/١) اعتراض الإمام علي الرضا، وإنكاره على قومه في الكوفة، يعتقدون بعدم صحة السهو في الصلاة عن النبي صلى الله عليه وسلم، وكذَّبهم على قولهم هذا، ولعل من دوافع اهتمام الشيعة بفكرة عصمة الأئمة، أنها تساعدهم في جعل شيعتهم يصدقون كل ما أورده الرواة من عقائد ومعجزات لا يجوز ردها؛ لأنها واردة من إمام معصوم، وأهمية فكرة عصمة الأئمة مرتبطة بفكرة الإمامة، التي هي ركن من أركان الاعتقاد عندهم؛ فالذي لا يعتقد بصحة إمامة علي رضي الله عنه وبقية الأئمة (الاثني عشر) يعد عندهم كافرًا إذا بلغته الحجة، فقد ذكر الشيخ ابن بابويه في كتابه (عقائد الصدوق) (ص٩٦): أن منكر عصمة الأئمة جاهل لهم، ومن جهلهم يعد كافرًا.

وهذه الفكرة مأخوذة عن اليهودية والديانات الفارسية القديمة، كما سبق أن أوضحنا ذلك.

٢. صفات الخالق عند الشيعة

ليس للشيعة رأي واحد في صفات الخالق، فمنهم المشبهة والمجسمة، وهؤلاء أكثرهم من قدماء الشيعة، ومذهبهم يُشبِه الخالق بخلقه، بأن له جسمًا له طول وله عرض وله عين وله إذن وله يد، ومن أهم القائلين بهذا المذهب هو هشام بن الحكم، وأغلب المتأخرين من الشيعة اعتقدوا بفكرة تعطيل الصفات أو نفيها في الخالق عندهم «لا جزء له، وما لا جزء له، ولا تركيب فيه، وماهيته أنه مركب ليس بجوهر ولاعرض، وما ليس بعقل ولا نفس ولا مادة ولا صورة ولا جسم ما ليس بجسم، ليس في مكان ولا في زمان ولا في جهة ولا في وقت، وما ليس في جهة ولا كم له ولا كيف ولا رتبة، وما لا كم ولا كيف له ولا جهة ولا وضع له، وما ليس له وضع ولا في وقت ولا مكان، لا إضافة له ولا نسبة، وما لا نسبة له ولا فعل فيه بانفعال ما، ليس بحجم ولا لون، ولا في مكان ولا جهة، لا يرى ولا يدرك».

وهناك فريق ثالث لما وجد فكرة التعطيل ونفي الصفات أوصلته ربما إلى نفي وجود الخالق، فاعتقد هذا الفريق فكرة تأويل الصفات، فيؤولون مثلا النص القرآني ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ الفتح: ١٠، بالقدرة. فليس له يد حقيقية، وإنما عبر عن قدرته سبحانه وتعالى باليد. وهكذا التأويل في الصفات الأخرى، وهذا المنهج يلتقي مع مذهب المعتزلة في الصفات، وممن تأثر من فقهاء الشيعة بالمعتزلة في موضوع صفات الخالق هو الشيخ المفيد (محمد بن النعمان م ٤١٣)، وغنيٌّ عن البحث أن غالبية علماء السنة يعتقدون بصفات الخالق، كما جاءت في النص القرآني أو الحديث الثابت دونما تأويل، فيقولون: إن له بصرًا وسمعًا[١] ويدًا تليق بذاته، فلا يشبهونه بأحد من خلقه. وقد مر بِنَا أن كثيرًا من مصادر الشيعة الإمامية ينسبون لأئمتهم بعضًا من صفات الخالق.

ففي تفسير القمي وفي معرض تفسيره للآية الكريمة: ﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ الزمر: ٦٩، وقال رواية عن جعفر: (رب الأرض يعني إمام الأرض).

وفي تفسير العياشي ذكر روايات تأول بأن الآيات المتعلقة ببعض الصفات أعطوها للأئمة، ذاكرين أن الإمام هو يد الله، وهو وجه الله[٢].

وفي أصول الكافي للكليني عدة روايات تأول الآيات القرآنية المتعلقة بصفات الخالق، بأن الأئمة «يد الله ووجه الله وعين الله وسلطانه الناطق، وهو باب الله، وهو علم الله، وقلب الله الواعي» وفي كتاب التوحيد لابن بابويه القمي ما يشبه هذا التأويل، مع أن الشيخ الملقب بالصدوق قصد في كتابه توحيد الله، ولكنه مع الأسف لم يستطع الخروج عما هو مقرر وثابت في المذهب[٣].

(١) عِوَض بن عيضة شريم السني الزهراني: مظاهر تقديس الأشخاص عند الشيعة الاثني عشرية، (ص٢٨٥)، جامعة أم القرى سنة ١٤٢٨هـ.

(٢) تفسير القمي (٢٠/٢)، العياشي: تفسير العياشي، (٢٦١/٢)، المجلسي: بحار الأنوار، (٢٥٧/٢٣)، عِوَض بن عيضة بن شريم السني الزهراني: مظاهر تقديس الأشخاص من الشيعة الاثني عشرية، جامعة أم القرى، (ص٢٥٨).

(٣) الكليني: أصول الكافي، (١٤٤/١)، الصدوق ابن بابويه: كتاب التوحيد، (ص١٥٠).

وكل هذا من فعل وروايات الغلاة من الشيعة الإمامية، الذين لم يستطيعوا تنقية المذهب من الغلو[١].

وهذه الأفكار يجدها الباحث في الديانة اليهودية والنصرانية في مختلف مدارسها، كما سنوضح ذلك لاحقًا.

٣. الاستغاثة بالأئمة وطلب الحاجات

يعتقد الشيعة الإمامية حسب مصادرهم أن الأئمة الإثني عشر إضافة إلى الصفات الإلهية التي نسبوها للأئمة، فقد ترسخ الاعتقاد عندهم بالاستغاثة بالأئمة، وطلب الحاجات خاصة عند زيارة قبورهم، ومن الطريف أن بعض المصادر ذكرت لكل إمام اختصاصًا بالحاجات المطلوبة، فعلي بن الحسين (زين العابدين) يستغيثون به من ظلم السلاطين، ومحمد بن علي وابنه جعفر الصادق يستغيثون بهما لطلب الآخرة، وأما موسى بن جعفر فيستغيثون به من المرض، و أما علي بن موسى فيستغيثون به لطلب العافية، وبعضهم يستغيثون بعلي بن موسى لطلب السلامة في البراري والبحار، وأما محمد بن علي فيستغيثون به لإنزال الرزق، وأما علي بن محمد فيستغيثون به لبر الوالدين، وأما الحسن بن علي(العسكري) فيستغيثون به للآخرة، وأما المهدي المنتظر فيستغيثون به إذا وصل السيف إلى الرقبة[٢].

ومن الغريب أن مصادرهم تشير حتى إلى الأنبياء، وأنهم طلبوا الشفاعة من أئمة الشيعة، فإبراهيم أُنقذ من النار بشفاعة الإمام، ونوح أنقذ من الغرق بشفاعته، وعيسى أنقذ من القتل بشفاعة الأئمة، وموسى أنقذ من الغرق وعبر البحر هو وقومه بشفاعة الأئمة، وهكذا بقية الأنبياء، ورُبَّ سائل يسأل بأن هؤلاء الأنبياء ماتوا قبل الأئمة؟

والجواب: أن الشيعة الإمامية يعتقدون أن الأئمة خلقهم الله قبل خلق آدم، خلقهم من نور معلقين تحت العرش في عالم الذر، وليسوا من طينة آدم، فنورهم يسري في الأصلاب، وتغص نصوص الأدعية الواردة في كثير من كتب الشيعة الإمامية بنصوص طويلة، مفادها

(١) أحمد الكاتب: التشيع السياسي والتشيع الديني، (ص٨٦)، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت.
(٢) المجلسي: بحار الأنوار، (٣٧/٩١).

عمومًا الاستغاثة وطلب مختلف الحاجات التي يدعون بها عند زيارة قبور الأئمة، وهذه الأدعية في الغالب مخصصة لكل قبر من قبور الأئمة، ويجري التوسل ببعض الأحيان بورقة تكتب، فيلقى بها إلى القبر أو يجري بها النهر أو تلقى في بئر. وهذه الأفكار مأخوذة من ديانات شتى.

٤. الخالق وصفاته في الفلسفة اليونانية وأثرها على الشيعة

يرى أفلاطون أن للعالم عقلاً محركًا بسيطًا ثابت التنوع فيه لا يتغير، ويرى أرسطو أن للعالم جوهرًا أزليًّا، وهو عقل ليس بجسم، لا مكان ولا زمان له، وأنه واحد ليس بمنقسم، محرك لا يتغير ولا يتحرك، وأنه محرك لغيره، وأن الأشياء تتحرك به، كتحرك العاشق من المعشوق.

ويرى أفلاطون أن للعالم محدثًا واحدًا مبدعًا، لا متناه، وأنه لا يوصف بأي صفة ولا يدرك، وقد عرف هذا المذهب بمذهب تعطيل الصفات، الذي يعتمد على نفي أي صفة، فلا هو بجسم ولا شبيه له، وقد أوضحنا فيما سبق مذهب المعطلة من المعتزلة والشيعة، ويبدو أن الصابئة يؤمنون بفكرة التعطيل، فقد ذكر البيروني أن صابئة حران يصفون الخالق بالصفات السلبية[١].

ومن الواضح أن فكرة تعطيل الصفات عند بعض الشيعة قد تكون مأخوذة من الفلسفة اليونانية.

٥. معرفة الأئمة للغيب عند الشيعة الإمامية

يرى الشيعة الإمامية أن أئمتهم يعلمون الغيب، فهم في هذا عالمون بما كان وما هو كائن وما سيكون من جميع الغيبيات، وقد عقد محمد بن يعقوب الكليني في كتابه (الكافي) فصلاً، أورد فيه جملة من الأحاديث الدالة على هذا المعنى، منسوبة إلى الأئمة على شكل أقوال أو حوادث، من ذلك ما رواه عن جعفر الصادق: «أني لأعلم ما في السموات وما في الأرض وأعلم ما في الجنة وأعلم ما كان ويكون».

(١) بسمة بنت أحمد بن محمد جستنتية: أثر الديانات الوثنية في عقائد الرافضة، جامعة أم القرى ١٤٢٥هـ.

وأورد الكليني حديثًا أيضًا ادعى فيه أن الإمام جعفرًا قال: إنه يعلم ما كان وما سيكون، وليس كما هو علم الخضر، حيث إن علمه محدود بما كان، وعقد بابًا لمشيئة الأئمة، وأنهم إذا شاؤوا أن يعلموا شيئًا علموه، كما أورد أحاديث تفيد علم الأئمة بوقت وفاتهم.

وذكر ابن بابويه القمي في كتابه (الأخبار) أن الإمام من صفاته علمه بما سيكون في الغد، ومعرفته جميع اللغات كما روى محمد بن الحسن الطوسي في كتابه (الاحتجاج) حديثًا يفيد أن الله عرَف الخلق باقتدار الأئمة على معرفة الغيب من خلق ورزق وأجل وعمر وحياة وموت، وعلم غيب السموات والأرض، كما أورد محمد باقر المجلسي في كتابه (بحار الأنوار) جملة من الروايات في علم الأئمة للغيب، وأن الأئمة أعطوا علم الأولين والآخرين[١].

وأورد الكليني في أصول الكافي (٢٦١/١) رواية عن جعفر قال: «والله إني لأعلم ما في السموات وما في الأرض وما في الجنة وما في النار وما في..... وأعلم ما كان وما يكون إلى أن تقوم الساعة...»[٢].

ومصدر علم الأئمة كما تدعي رواياتهم: «أن علمنا غابر ومزبور، ونكت في القلوب، ونقر في الأسماع»، وفي هذا ادعاء بأن الأئمة يوحى إليهم على خلاف فيما بين الشيعة في الكيفية، والأئمة على أساس أن الأئمة عندهم أفضل من الأنبياء، حيث علم الأئمة أوسع، كما أنهم أرفع وسيلة، ويرى أحمد الكاتب أن هذا من أثر الغلاة، فيما أسماه التشيع الديني[٣].

وهذه الأفكار منتحلة عن اليهودية والنصرانية كما سنرى.

---

(١) الكليني: الكافي، (٢٦١/١)، المجلسي: بحار الأنوار، (١١١/٢٦)، الطوسي: الاحتجاج، (٢٥٦/١)، أبو ذَر هجاد بن مساعد التميمي: الألوهية والعبودية في معتقد الرافضة، القاهرة.

(٢) عِوَض بن عيضة بن شريم السني الزهراني: مظاهر تقديس الأشخاص عند الشيعة الاثني عشرية، (ص١٤٩- ١٥٠)، جامعة أم القرى، سنة ١٤٢٨هـ - ١٤٢٩هـ.

(٣) المجلسي: بحار الأنوار، (٢٦/ ٢٩٧- ٢٩٨)، أحمد الكاتب: التشيع السياسي والتشيع الديني، (ص ٨٨)، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت.

٦. ادعاء قدرة الأئمة على إحياء الموتى عند الشيعة الإمامية

أورد الكليني في كتابه (الكافي) حديثًا يفيد بأن الإمام عليًّا طلب منه إحياء رجل من خؤلة بني مخزوم، فجاء إلى قبره وركله برجله، فخرج صاحب القبر.

وروى الكليني أيضًا أن رجلاً دخل على الإمام الصادق شاكيًا موت زوجته التي يحبها، فرد عليه الإمام: ارجع إلى بيتك فستجدها حية.

وروى المجلسي في (بحار الأنوار): أن غلامًا لجعفر الصادق سأل الإمام أن يحيي له أخاه في المقبرة، فسأله الإمام عن اسمه، فقال أحمد: فصاح الإمام في المقبرة باسمه، فنهض الرجل من قبره. ولم يقتصر ادعاؤهم إحياء الموتى البشر، بل تعداه إلى إحياء ميت الحيوان، فقد روى المجلسي عن جعفر الصادق: أنه في منى بمكة مر على امرأة وحولها بقرتها الميتة، فرقَّ الإمام لحالها؛ لأنها وأطفالها تعيش على حليب تلك البقرة، فسألها أن يحييها، فردت عليه: أتسخر مني؟! فقال: كلا. وركل البقرة برجله فقامت، ومضى بين الناس لا يعرف له أثر، وكذا روى المجلسي أيضًا أن الإمام الصادق أخذ أربعة مختلفة من الطير، فذبحهن وخلطهن مع بعضهن، ثم نادى كلاً باسمه، فجاؤوا سعيًا، وهذا واضح لما فيه محاكاة، لما في النص القرآني المتعلق بنبي الله إبراهيم، فقد صدق الله وكذب المجلسي ورواته[1].

وغني عن البيان أن في هذا انتحالاً واستعارة لما عند النصرانية من إحياء نبي الله عيسى للموتى، كما سنفصل ذلك في موضعه.

٧. حلول الخالق في أئمة الشيعة

تسرب إلى كتب الحديث عند الشيعة الإمامية العديد من الروايات التي تفيد حلول الخالق بأئمتهم أو بعضًا من أجزاء أجساد أئمتهم في الخالق سبحانه وتعالى.

فقد نقل المجلسي رواية عن هشام بن أبي عمار قال: سمعت الإمام عليًّا يقول: أنا عين الله، وأنا يد الله، وأنا جنب الله، وأنا باب الله، وأنا علم الله، وأنا قلب الله الواعي،

(١) المجلسي: بحار الأنوار، (ص١١٥/٤٧).

ولسان الله الناطق، وأنا الله بذاته. كما روى المجلسي روايات تفيد أن الإمام عليًّا سوف يقوم يوم القيامة بمحاسبة الخلائق، وأن النبي محمدًا صلى الله عليه وسلم سيحاسب الأنبياء، وهذا لا يكون إلا بحصول صفة الألوهية لعلي، وأنها قد حلت به، ونسب إلى الإمام علي أقوالاً لا يمكن أن تصح إلا لجانب الخالق سبحانه وتعالى، «كادعائه بأن عليًّا قال: أنا ولي الحساب، أنا صاحب الصراط والموقف، وقاسم الجنة والنار، أنا مورق الأشجار، وأنا مفجر العيون، ومجري الأنهار، وأنا الأسماء الحسنى، التي أمر أن يدعى بها، وأنا النور الذي اقتبس منه الهدى، وأنا مخرج من في القبور ....».

ونقل الشهرستاني في كتابه (الملل والنحل) ما نقل عن ابن سبأ اليهودي أنه قال للإمام علي: أنت. وقيل: إنه يعني أنت الله. وذكر المقدسي في كتابه البدء والتاريخ: أن السبئية قالوا: علي أنت الله وأنت إله العالمين أنت خالقنا وأنت رازقنا وأنت محيينا. فاستعظم علي ذلك فأخذهم وأحرقهم، وأكد الخطيب البغدادي في كتابه (الفرق بين الفرق) هذه المقالة وإحراق قائلها، وقد أكدت كثير من مصادر الشيعة الإمامية مقالة ابن سبأ في علي، منها كتاب (فرق الشيعة) للنوبختي، وكتب الحديث الأربعة عند الشيعة، وما نقلناه كان رأي قدماء الشيعة الإمامية، ولكن عقيدة الحلول ووحدة الوجود يرددها أيضًا كثير من علماء الشيعة الإمامية المتأخرين، فقط ذكر أن الشيخ الكاشاني في كتابه الوافي أوضح اعتناق فكرة وحدة الوجود، وللكاشاني رسالة في وحدة الوجود، ونسب للشيخ النراقي بأن الحلول هو أعلى مراتب التوحيد[1].

وقد أوضحنا سابقًا فكرة الحلول والتناسخ التي قالت بها الديانة الفارسية القديمة وبعض الديانات الهندية كالبوذية، كما أن هذه الفكرة واضحة في الديانة النصرانية، وخاصة ما تعلق بصفة المسيح عليه السلام، وقد انتقلت هذه الفكرة إلى الصوفية وإلى الشيعة الغلاة، كما سبق أن أوضحنا، وسنفصل ذلك في الديانة اليهودية والنصرانية.

(١) أبو ذَر هجاد بن مساعد التميمي: الألوهية والعبودية في معتقد الرافضة، القاهرة، (ص ٢٢٦)، المجلسي: بحار الأنوار، (٢٨٦/٢٥)، الكشي: رجال، (ص ١٩٣)، البغدادي: الفرق بين الفرق، (ص ٢٣٣)، الشهرستاني: الملل والنحل (١٢٧/١).

التجسيد: التناسخ

تشترك أكثر الديانات الشرقية القديمة من هندية أو مجوسية فارسية أو سومرية وبابلية أو الصابئة بفكرة حلول الآلهة بأجساد رجال الدين أو الأئمة أو الملوك على اختلاف هذه الديانات:

١. فعند الصابئة: أن الإله المعبود جعل الكواكب تدبر العالم، والإله تجسد في هذه الكواكب، وحل بها بشكل نوراني، وقد يحل أو يتجسد في الأشخاص الأرضيّة الخيرة، فالله عندهم هو ملك النور، ومن هذا النور تتجسد الأرواح، وتحل بالأشخاص الخيرة.

٢. وعند السومريين والبابليين والديانات القديمة في وادي الرافدين: أن الإيمان بتعدد الآلهة هو السائد، وأن للآلهة أرواحًا نورانية، تتمثل في الكواكب وخاصة في الشمس؛ فالملك حامورابي يدعي أنه يتسلم القانون من إله الشمس (عشتار) وجزء كبير من قانون حامورابي بين أيدي الباحثين اليوم، يحتوي على جملة من التنظيمات والعقوبات التي يدعون أن الله قد أمر بها، فعقيدة السومريين هي تقديس الملك، والاعتقاد بأن الآلهة قد تجسدت أو حلت به.

٣. وفي الديانات الهندية القديمة خاصة الهندوكية: الاعتقاد بتعدد الآلهة، وتتضح فكرة الحلول والتناسخ في كتاب الفيديا، فهم يَرَوْن أن الإله براهما قد حل برئيس الكهنة حلولاً وراثيًّا ينتقل في الأصلاب.

٤. ترى الديانات البوذية أن الإله قد حل في بوذا رجل الدين المقدس، فروح بوذا عندهم حية إلى اليوم، يجسدونها بأصنام (تمثال بوذا) فيعبدونه إلى اليوم، وهذا هو تبريرهم للسجود لهذا الصنم، وترى الديانة المجوسية المتمثّلة بالزرادشتية والمانوية: أن الكون يحكم بإله الخير والشر (اوهرا ومزدا)، (النور والظلمة)، وإله الخير إله نوراني، وإله الشر إله الظلام، ويرى قدماء إيران أن الخير النوراني قد حل في ملكوهم: فالملوك عندهم قد تجسدت الروح الإلهية فيه، وهي تنتقل إلى أبنائه، فقد ادعى الملوك الساسانيون بأنهم يحكمون بقوة الإله، وأن أمرهم نافذ وواجب الطاعة، فهذا التقديس للملوك عند الفرس والاعتقاد بحلول النور الإلهي فيهم، وأن هذا النور ينتقل من الآباء إلى الأبناء،

وأن طاعتهم واجبة، وهم معصومون من الخطأ، ويتضح هذا الاعتقاد بوضوح في عقيدة فرقة الراوندية، التي ظهرت في القرن الثاني الهجري في إيران، وخلطت مبادئ الإسلام والفكر الفارسي القديم، وخاصة فكرة الحلول، وقد قام الخليفة المنصور بمعاقبة هذه الفرقة وتشتيتها[١].

ونشير إلى أهمية الواقع التاريخي للموالي الفرس الذين كانوا تحت هذا الاعتقاد، ثم دخلوا في الإسلام وتفرق بعضهم إلى فرق من الشيعة كثيرة غير الراوندية، ذكر بعضهم النوبختي في كتابه فرق الشيعة، فهنا يتضح كيفية انتقال ميراث الديانة الفارسية المجوسية في الحلول والتناسخ إلى التشيع المتجسد في الروايات المبثوثة في أحاديث الشيعة عند الكليني وابن بابويه القمي والطوسي؛ ولهذا سهل على رواة الشيعة القول بحلول نور الخالق في الإمام علي والأئمة الآخرين، وانتقال هذا النور في الأصلاب، وأعطوا أئمتهم قدرة إلهية على معرفة الغيب أو إحياء الموتى وشفاء المرضى، وما إلى ذلك من معجزات[٢].

وكل هذا من فعل الغلاة من الشيعة الإمامية وغيرهم.

وقد أوضح أحمد الكاتب نظرية الإمامة وصفات الإمام عند الشيعة الإمامية، هي من صنع الغلاة المتكلمين لدوافع دينية لإثبات الفرق بينها وبين دوافع التشيع السياسي.

٨. صلاحية التشريع والتفويض لأئمة الشيعة الإمامية

يرى الشيعة الإمامية أن الأئمة لهم حق التحريم والتحليل في شرع الله؛ لأنهم مفوضون بهذا الحق من الله عن طريق رسوله صلى الله عليه وسلم، ويؤيد ذلك ما ذكره الكليني في أصول الكافي من إيراده عشرة أحاديث كلها تفيد أن الله فوض للأئمة حق التحليل والتحريم، ونقل المجلسي في بحاره تلك الروايات، وزاد عليها: أن الله قد فوض للأئمة حق تدبير الكون، وأوجب على الجميع من جماد وإنسان طاعتهم. وأورد الطوسي

(١) الشهرستاني: الملل والنحل، (٢٥٣/١)، وما بعدها. بسمة بنت أحمد بن محمد جستنية: أثر الديانات الوثنية في عقائد الرافضة، جامعة أم القرى، ١٤٢٥هـ.

(٢) أحمد الكاتب: التشيع الديني والتشيع السياسي، (ص ٨٩)، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ٢٠٠٩م.

في كتابه (تهذيب الأحكام) (١٢٠/٤) رواية تحلل للفرد من الشيعة ما يصيبه من مال تقع عليه يده من أموال المخالفين [١].

كما قالوا: إن للأئمة حق إظهار ما في الشريعة أو كتمانها، وكل هذا بلا شك من فعل الغلاة من الشيعة الإمامية، التي تسربت رواياتهم المكذوبة عن الأئمة، بقصد إضفاء الصفة الدينية الإلهية لأئمتهم، وهذا ما يراه أيضًا أحمد الكاتب[٢].

٩. وحدة الوجود والاتحاد عند الشيعة الإمامية

ورد عند الشيعة الإمامية عدة روايات، نسبوها إلى أئمتهم، تفيد أن الأئمة اختلطت أرواحها بالخالق، فقد أورد الكليني في الكافي رواية تقول عن الصادق: «لكن الله خلطنا بنفسه»[٣].

وروى الكليني أيضًا عن الصادق قوله: «إن الله خلقنا من نور علمه، ثم صور خلقنا من طينة مخزونة مكنونة من تحت العرش، وخلق شيعتنا من طينتنا... وصار سائر الناس همجًا للنار وإلى النار»[٤].

واستنادًا لما سلف، فإن أئمة الشيعة جزء من الله- تعالى الله عن ذلك-، وروى نعمة الله الجزائري في كتابه (الأنوار النعمانية) عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: «إن الله خلقني وعليًّا من نور عظمته، قبل أن يخلق الله الخلق بألفي عام، إذ لا تسبيح ولا تقديس ولا تحليل، ففتق نوري فخلق منه السموات والأرض، وفتق من نور علي بن أبي طالب فخلق منه العرش والكرسي، فعلي وآله أجَل من العرش والكرسي»[٥].

وقد سبق أن استعرضنا جملة من أسماء علماء الشيعة، الذين تأثروا بهذه الأفكار الغالية.

---

(١) المجلسي: بحار الأنوار، (١٢٠/٤).
(٢) أحمد الكاتب: التشيع الديني والتشيع السياسي، (ص ٩٠).
(٣) الكليني: الكافي، (٤٣٥/١).
(٤) الكافي، مصدر سابق، (٤٥٣/١).
(٥) نعمة الله الجزائري: الأنوار النعمانية، (١٧/١).

١٠. فكرة إحاطة الأرواح في العالم

ترى الديانة البوذية: أن روح بوذا محيطة بالعالم، وأن لها القدرة على التصرف في الكون، ولهذه الروح القدرة أيضًا في أن تتقمص على شكل إنسان يدور في كل مكان وفي كل زمان، والبوذية على مذهبين: القديم وهو مذهب هينايان، والآخر عبارة عن تعديل للمذهب القديم ويدعى (مهايان)، كما ورد ذلك في كتاب (البوذية: تاريخها وعقائدها وعلاقة الصوفية بها)، د. عبدالله مصطفى نو مسوك (ص٣٥١)، كما ورد ذلك أيضًا مفصلاً في كتاب (إنجيل بوذا) سامي سليمان شيا (ص٢٢٥)، (ط٢ بيروت دار الحداثة، ٢٠٠٤م).

ويرى الشيعة الإمامية عمومًا أن أرواح الأنبياء والأئمة محيطة بالكون، مستمرة قدرتها على إدارة الكون والتأثير به وما فيه من مخلوقات، وقد لخص لنا الخميني في كتابه (كشف الأسرار) (ص ٤٩) وما بعدها، حيث ذكر أن أراوح الأئمة لها القدرة على التصرف في هذا العالم وتدبيره، وأن الروح بعد موت الإنسان تصل إلى أرقى حالاتها، كما ذكر أن إحاطة الأرواح الكاملة بهذا العالم هي بعد الموت أرقى، ونقل الخميني في كتابه السالف أقوال الفلاسفة عن النفس والروح الإنسانية كأقوال ابن سينا وفلاسفة اليونان كأرسطو، ومن آراء فلاسفة اليونان التي تابعها بعض فلاسفة المسلمين: كابن سينا والفارابي والكندي يقولون: إن للكواكب أرواحًا وقدرات مؤثرة في الكون، وهذه الفكرة قد آمن بها علماء الشيعة الإمامية، وغيروا فيها، فبدل أن يقولوا بقدرات الكواكب وأرواحها، أبدلوها بأرواح الأنبياء والأئمة؛ ولهذا فالشيعة الإمامية يعتقدون بصحة الطلب من الإمام، سواء عند زيارته في قبره أو بعيدًا عنه، يطلب منه الاستشفاء من المرض وتلبية الحاجات؛ لأن روحه حية ومحيطة بقدرتها في العالم، والخميني قد استند في فكرته تلك على أقوال القدماء من الشيعة الإمامية، ففي كتاب (أصول الكافي) للكليني باب بعنوان الأرض كلها للإمام علي عليه السلام، أورد تحته عدة أحاديث، تفيد بأن الأئمة لهم القدرة على التصرف في الكون، وأن الدنيا والآخرة تحت تصرف الإمام، وأورد المجلسي في كتابه (بحار الأنوار) عدة أحاديث تفيد بأن الإمام يدبر الكون ويدبر الريح، وأن أعمال

الخلق تعرض عليه، وأورد أحاديث ادعى فيها أن عليًّا رضي الله عنه قسيم الجنة والنار ومحيي الموتى، وهو الذي يدبر الرعد والبرق، ويغيث السماء، وينبت عشب الأرض. كما أضاف المجلسي: أن الله فوض للأئمة التحليل والتحريم والعطاء والمنع، كما روى أيضًا: أن عليًّا قد قال: أنا علم الله، وأنا قلب الله الواعي، ولسان الله الناطق، وعين الله الناظرة، وأنا جنب الله، وأنا يد الله. وهذا التصور القديم عند الشيعة الإمامية مستمر الاعتقاد به عند أكثرهم في الوقت الحاضر، فقد قال الخميني في كتابه (الحكومة الإسلامية): إن للأئمة مقامًا محمودًا، ودرجة سامية، وخلافة تكوينية، تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون[١].

١١. فكرة الألوهية عند الصابئة وأثرها على الشيعة

يتركز سكن الصابئة المندائيين في قلعة صالح في جنوب العراق، ويسكنون حول الأنهار لاعتقادهم بقدسية الماء، وقيل: إن أصلهم من حران. وورد رأي آخر أن أصلهم من جبل منداي في إيران، وهو الأقوى عندنا، وقد تأثرت ديانتهم بالمجوسية والهندوكية والفلسفة اليونانية، ولهم كتاب فيه أصل تعاليمهم القديمة يدعى (كنزه ربه)، ورجل الدين عندهم يسمى (كنزفره)، يَرَوْن أن للكواكب قوة على الإنسان والموجودات في الأرض، فالكواكب عندهم هي القوة المحركة للرياح والأمطار والنباتات، وما إلى ذلك من موجودات، ويبدو أن الشيعة الإمامية باختلاطهم بالصابئة استعاروا هذه الفكرة، وأدخلوا عليها بعض التعديل، فاستبدلوا قوة الكواكب والنجوم بقوى أئمتهم كما يدعون.

ويرى الصابئة أن الكينونة العليا التي لا هيئة لها انبثقت عنها الكواكب والنجوم والأنبياء والصالحون، ويرون أن لهذه العوالم تأثيرًا كبيرًا على مظاهر الحياة، ويرون أن للكواكب أرواحًا؛ فالشمس مثلاً عندهم لها عشرة أرواح، ويشيرون إلى العوالم الروحية بأنها أبناء النور، روى الشيخ المفيد في كتابه (الاختصاص) ونقله عنه المجلسي في كتابه (بحار الأنوار) أن الإمام الصادق أسند صوت الرعد ولمع البرق إلى فعل الإمام علي[٢].

(١) المجلسي: بحار الأنوار، (١٩٨/٢٤)، الخميني: الحكومة الإسلامية، (ص ٢٥).

(٢) المفيد: الاختصاص، (ص٣٢٧)، المجلسي: بحار الأنوار، (٣٣/٢٧).

١٢. فكرة الخالق عند الهندوكية واقترابها لما عند الشيعة

تسند الديانة الهندوكية الحوادث إلى غير الله، فزعموا أن كريشنا هو المتصرف في الكون ونسبوا له قوله: «أنا المتصرف في ملكوت الأرض والسماء»، ونسبوا اليه أيضًا: «أنه هو علة وجود الكائنات، فيها كانت وفيها تحل، وجميع ما في الكون يتكل عليه»[١].

١٣. فكرة التطير والتشاؤم في الأيام والمناسبات

يعتقد الصابئة بوجود أيام ومناسبات للنحس يجب على المرء تفاديها، وينسبون ذلك إلى قوى مؤثرة من الكواكب، فعند الصابئة أيام في السنة لا يخرجون فيها من بيوتهم، فلا يطعمون فيها دوابهم لاعتقادهم بحلول الشر في تلك الأيام، كما يعتقدون بأيام للنحس في أول الشهر وفي وسطه وفي آخره، فلا يعقدون فيها زواجًا ولا يبرمون اتفاقًا، كما أن عندهم ساعات معينة لا يجوز فيها أن يأتي الرجل زوجته، وعليه أن يسأل الكنزفره (رجل الدين) عن أيام السعد ليتقارب فيها أهله، ويركز الصابئة على ظهور القمر، فيتشاءمون بأي عمل يقوم به الشخص والقمر في المحاق أو في برج العقرب، وفي ديانات وادي الرافدين يشيع التشاؤم من الظواهر: كالخسوف أو الهزات الأرضيّة، بل يأتي التشاؤم حتى في بعض الأمور والحوادث البسيطة، فيكفي عثر الشخص أو العطاس أن يثنيه عن سفر أو أي أمر قد عزم عليه، وهذا موجود إلى الآن في كثير من مجتمعات شيعة العراق وخاصة العوام منهم[٢].

١٤. فكرة التوسل وطلب الشفاعة في الأديان الوثنية

١. في الديانة المجوسية الفارسية، حيث يعتقدون بإثنينية الآلهة (أوهرا- ومزدا) يطلب المجوس من رجل الدين أن يتوسط له عند الآلهة لتحقيق غاياته، وعند المجوس أن ابن الآلهة (أوهرا) يشفع للناس عند أبيه، ويقود الحرب ضد الخصوم.

---

(١) بسمة بنت أحمد بن محمد جستنية: أثر الديانات الوثنية في عقائد الرافضة، (ص ٣٥٥)، مرجع سابق.

(٢) بسمة بنت أحمد بن محمد جستنية: أثر الديانات الوثنية في عقائد الرافضة، (ص٣٧٩)، مرجع سابق. تاريخ الصابئة المنداءيين، (ص:١٣٠) و(ص ٦٦)، وما بعدها.

٢. يعتقد الصابئة بوجود إله صانع فاطر حكيم مقدس عن سمات الإنسان، والبشر يحتاج إلى واسطة وشفاعة يتقرب بها من الإله. والروح الإلهية حالة في الكواكب، وعلى البشر أن يعظموا تلك الكواكب؛ لأنها هي الوسائط المؤثرة في تلبية الحاجات، فأوجبوا على أتباعهم تقديم الصلوات والقرابين إلى هذه القوى.

٣. وفي الديانات الهندية حيث تتعدد الآلهة، فالهندي حسب حاجاته إلى المطر للزراعة مثلاً أو حاجته أن يبرأ من مرض، فهو يذهب إلى المعبدالخاص بإله تلك القوى المطلوبة؛ فيصلي ويقدم القرابين، وهم يحجون إلى نهر الكنك، ماؤه مقدس ويتبركون بمائه كواسطة للشفاعة والشفاء[١].

ويعتقد الشيعة الإمامية باختصاص كل إمام من أئمتهم بتلبية حاجتهم، فإمام متخصص بشفاء المرض، وآخر متخصص برفع الكربات، وأما الإمام الغائب فيرون خصوصيته عند وقوع السيف بالرقبة، كما أوردنا ذلك فيما سبق.

١٥. الملك الحاكم في الديانة الفارسية (المجوسية)

ترى المجوسية أن الملك هو اختيار من قبل الآلهة، ويصفونه بأنهم أبناء الآلهة؛ وذلك عن طريق النور الإلهي الذي ينتقل في أصلابهم، فالملك ليس من اختيار الناس، وإنما مفروض من الآلهة بسبب صفاته المقدسة، التي أضفتها الآلهة عليه فطاعته واجبة، ويقوم رجال الدين (المغان) بدور بارز في تعظيم الملك والسجود بين يديه، ونعتوا ملوكهم بصفات الآلهة، وبلغ هذا التأثير في بلاد ما بين النهرين في عهد الأكاديين إلى أن يعبدوا ملوكهم في المعابد، وإذا ماتوا أضحت قبورهم مقدسة، يستمرون في الصلاة عندها وطلب الحاجات؛ فالملك رام من ملوك أكاد ادعى لنفسه الألوهية، ووضعوا أسماء الملوك بعد اسم الآلهة، وتدعي الأسطورة السومرية الآلهة انليل تحت ملك يسوس الشر[٢].

وعند الشيعة استعاروا لأئمتهم صفات الخالق أو بعضًا من أجزائه، فعندهم الإمام هو وجه الله، ويد الله، وعين الله، وسمع الله، وهذا يقرب كثيرًا من قول الديانة الفارسية: إن الملك ابن الله، ونسبوا لأئمتهم من قوى تشبه ما نسبته الديانات الوثنية لملوكها.

(١) أثر الديانات الوثنية في عقائد الرافضة، مصدر سابق، (ص٤٣٢).

(٢) أثر الديانات الوثنية: مصدر سابق، (ص ٥٣٧).

١٦. الملك في الفكر اليهودي

ترى اليهودية أن ملوكهم مرسلين من الله، وليسوا من اختيار البشر، وأن الله قد اختارهم لصفات قد منحهم إياها؛ فالملك عند اليهود يمثل سلطان الله في الأرض، وتستمر الملكية في أسرة الملك وأبنائه بالتوارث، فهم يرثون صفات أبيهم طائفة التوراة الإصحاح ١٨ من سفر التثنية، أنه لم يخل أي زمان أبدًا من نبي يخلف موسى ومن نوعه، فبعد موسى جاء وصيه يوشع بن نُون ملكًا على بني إسرائيل.

وقد قال النوبختي في كتابه (فرق الشيعة): إن عبدالله بن سبأ هو أول من ادعى وجوب إمامة علي رضي الله عنه بصفته وصيًّا من الرسول محمد صلى الله عليه وسلم. كما أوصى موسى ليوشع بن نُون، وقد أيد هذه المقالة كلٌّ من الكشي والمامقاني والجزائري، وأيد هذه المقالة كثير من المستشرقين: جولد زيهر- فلهوزن، ويرى الأستاذ مونتجمري وات أستاذ الدراسات الإسلامية في جامعة أدنبرة: أن فكرة الملكية عند الفرس حملها المسلمون من القبائل اليمنية الذين تشيعوا، حيث كانت اليمن تحكم بملوك الفرس[1].

وذكر أحمد الكاتب أنه كان يعتقد أن فكرة الإمامة عند الشيعة هي من صنع المتكلمين، من حيث إن ما ورد عن الأئمة بالطرق الصحيحة: الإمامة شورى وليست وراثة. ويشير القرآن الكريم إلى أن اليهود ادعوا أن نبيهم عزيرًا هو ابن الله.

١٧. فكرة المهدية في الأديان وأثرها على الشيعة

١. تزعم الديانة الهندية القديمة: أن كريشنا مات وسيرجع، ويكون ظهوره في صورة فارس مدجج بالسلاح وراكب على جواد، وعند مجيئه تظلم الشمس والقمر، وتزلزل الأرض، وتتساقط النجوم من السماء، وهو الذي سيدِين الأموات، وأنه سيعيد العدل إلى الأرض، ويحمي الخير ويدمر الشر.

٢. يعتقد الزرادشتية أن ساوشيانت بن زرادشت سيرجع إلى الأرض لمناظرة (اوهرا- ومازدا) في صراعه ضد (اوهرا) من إله الظلمة. وفي الديانات الوثنية ذكر لظهور المخلص (المهدي) المنتظر الذي سيرجع من مقبرته في الكهوف

(١) أثر الديانات الوثنية: مصدر سابق، (ص ٥٤٥).

أو جحور تحت الأرض أو سرداب، وهذا عين ادعاء الشيعة، اختفاء المهدي (محمد بن الحسن العسكري) في سرداب سامراء، وأنه سيظهر فيملأ الأرض عدلاً بعد أن يقتل العرب المخالفين، وتعتقد المجوسية أن لهم منقذًا منتظرًا حيًّا باقيًا مهديًّا، من ولد بشتاسف بن بهراسف، ويقال له: ابشاوثن، وأنه في حصن عظيم بين خراسان والصين، وقد أكد أحمد كسروي أن فكرة المهدي المنتظر عند الشيعة مأخوذة من الفرس.

٣. وفكرة المهدي المنتظر موجودة أيضًا في اليهودية، ورد في التوراة سفر التثنية نصٌّ يقول: «يقيم لك الرب إلهك نبيًّا من وسطك من إخوتك مثلي.....، قال لي الرب: قد أحسنوا فيما تكلموا، أقيم لهم نبيًّا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به، ويكون أنا الانسان الذي يسمع لكلامي، والذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه».

وتعاقب شراح التوراة من اليهود، وخاصة بعد الشتات: أن ادعوا أن الله سيبعث لهم (مسيحيًّا مهديًّا) يجمع شتاتهم ويقتل أعداءهم، وتمسكوا بنصوص أخرى في التوراة في سفر أشعيا «يولد لنا ولد أبديا رئيس السلام لنمو رئاسته وللسلام لا نهاية، على كرسي داود على مملكته ليثبتها ويعضدها بالحق والبر من الآن وإلى الأبد»؛ فاليهود ما زالوا ينتظرون هذا المخلص الذي سيظهر كما يزعمون في أورشليم، ويعيد لهم بناء الهيكل، ويدعي اليهود أن منتظرهم حينما يظهر سيطبق ما ذكره من نصوص في التوراة، تقول: «تحطيم أطفالهم أمام أعينهم، وتنهب بيوتهم، وتفضح نساؤهم» وهذه المذابح عندهم ستشتمل ليس فقط فلسطين، وإنما العراق ومواب وسط الأردن ودمشق ومصر وبلاد العرب.

وقد قام قديمًا شراح التوراة وخاصة فيما ورد في التوراة تفاصيل أكثر عن ظهور المخلص، والأعمال التي سيقوم بها ضد أعداء اليهود، ويرى المستشرق اليهودي المجري جولد زيهر: أن اليهود يعتقدون أن النبي إيليا قد رفع إلى السماء، وأنه لا بد أن يعود إلى الأرض في آخر الزمان، لإقامة دعائم الحق والعدل، و أن إيليا هو المثال الأول لأئمة الشيعة الغائبين، الذين هم أحياء لا يراهم أحد، والذين سيعودون يومًا ما بوصفهم مهديين منقذين للعالم، ويرى المستشرق الألماني فان فولتن: أن فكرة المهدي المنتظر دخلت على

المسلمين عن طريق بعض من أسلموا من اليهود، مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه اللذين أدخلوا كثيرًا من الإسرائيليات في التفسير والتاريخ، وصفة المخلص المنتظر عند اليهود تتشابه بما عند الشيعة الإمامية، فقد ورد في سفر يوئيل صفة المخلص اليهودي بما يقارب صفة المهدي المنتظر عند الشيعة الإمامية.

٤. وعند الشيعة الإمامية أن مهديهم المنتظر الذي دخل سرداب سامراء سنة ٢٦٠هـ تقريبًا، سيظهر آخر الزمان، ومن مجموع النصوص الواردة عند الكليني في أصوله، وعند ابن بابويه القمي، والنصوص التي جمعها محمد باقر المجلسي في كتابه (بحار الأنوار) جمعها من كتب الحديث المروية عندهم، ومفادها أنه سيظهر بمكة، ويبدأ بقتل العرب وقريش، فتسيل الدماء في الكعبة حتى يقول الناس: إنه ليس من آل محمد، فلو كان من آل محمد لرحم، ثم يعيد بناء مقام إبراهيم والكعبة والحجر الأسود، ثم يتجه إلى الكوفة، فيبني بناء مسجد الإمام علي حاملاً حجر موسى الذي انبجست منه اثنتا عشرة عينًا، يرتوي منها الشيعة كما يزعم الحديث، الذي رواه المجلسي، كما روى أيضًا أن المنتظر سيحكم بشريعة النبي دَاوُدَ، ومن ذلك يفهم أن تفاصيل الأعمال التي سيقوم بها منتظرهم مقتبسة من الأفعال التي يدعي اليهود بأن مخلصهم سيقوم بها.

فهل يا ترى سيكون هناك اتفاق بين مخلص اليهود ومنتظر الشيعة، أم سيتنازل أحدهما إلى الآخر للقيام بتلك الأعمال الشنيعة والموعودة على المنطقة؟[١]

ذكر الكليني في أصول الكافي رواية عن الإمام جعفر تقول: «لا تذهب الدنيا حتى يخرج رجل مني يحكم بحكم آل داود، ولا يسأل بينة، يعطي كل نفس حقها»[٢].

ولأهمية هذه الفكرة عند الكليني فقد وضع للأحاديث الواردة فيها بابًا بعنوان: (باب في الأئمة عليهم السلام أنهم إذا ظهر أمرهم حكموا بحكم داود وآل داود ولا يسألون البينة).

(١) المجلسي: بحار الأنوار، (٣٧٦/٥٢)، اقرأ الديانات في عقائد الرافضة: مصدر سابق، (ص ٦١٦).
(٢) أصول الكافي، (٣٩٨/١).

وعللوا عدم السؤال عن البينة بأن الإمام معصوم يعلم الغيب وما تخفي الصدور، وسيأتي مهديهم المنتظر بكتاب فيه تشريع جديد غير الإسلام، حيث يذكر النعماني في كتابه (الغيبة): أن المنتظر سيقف بين الركن والمقام وبيده كتاب جديد، على العرب شديد، يبايع الناس عليه[١].

وتقول الروايات عندهم: إن الإمام المنتظر سيغير الأحكام المعروفة في الإسلام؛ فالميراث سيحكم إلى الأخ في الدين الشيعي بدل الوارث من شقيقه في الرحم، والأمانات لا ترد لمستحقيها بل تعطى لمن يراه الإمام، وسوف لن يأخذ الجزية من أهل الكتاب، ويكون للإمام قوة في تخصيص النص (القرآني) أو تعميم النص الخاص أو تقييد المطلق أو تبيين المجمل (للنص القرآني)، وهذا يعني أن دين الإسلام عندهم لم يكتمل، وأن بعضه سينسخه الإمام أو يعطل حكمه[٢].

رأي النصرانية في المسيح المنتظر

ترى المسيحية أن الله تجسد في المسيح عيسى ابن مريم، وأن المسيح تجسد في الحبر الأعظم، وظلت أوروبا قديمًا تحكم بواسطة البابا (الحبر الأعظم)، الذي له الولاية والطاعة على جميع النصارى كما يدعون، وأن على النصارى دفع نسبة من أموالهم إلى الكنيسة، وهذا التقديس للحبر الأعظم إنما جاء كما يدعون عن طريق الحلول الإلهي، وقد تأثر الشيعة الإمامية بهذه الفكرة، زاعمين أن الله قد حل في الإمام علي، وإن اختلفوا في صورة الحلول، وكيفية كون علي معصومًا يملك الإرادة التكوينية كما مر سابقًا.

وادعت المسيحية أن المسيح سيظهر فيملأ الأرض عدلاً، وهذه عين مقالة الشيعة الإمامية في الإمام المهدي المنتظر، وادعوا أن الإمام الثاني عشر حينما اختفى اتصل بأربعة نواب واحدًا بعد الآخر (سفراء)، ينوبون عنه عن طريق دعوة الحلول الإلهي، فيوصلون أوامره ونواهيه، ويقبضون الخمس من الأموال، وهذا قريب مما حصل في المسيحية،

(١) النعماني: كتاب الغيبة، (ص ٢٠٠).

(٢) عِوَض بن عيضة بن شريم السني الزهراني: مظاهر تقديس الأشخاص عند الشيعة الاثني عشرية، (ص ٢١٧)، مصدر سابق.

كما يشهد على ذلك موسى الموسوي في كتابه (تصحيح عقائد الشيعة الإمامية)، وادعى الشيعة الإمامية بولاية الفقيه، وأن الفقيه في زمن الغيبة يكون نائبًا للإمام، وله عين السلطان التي شرعوها للإمام.

١٨. رأي الديانات القديمة والوثنية في الرجعة

إن فكرة رجعة الأموات للأشخاص المهمين في المجتمعات القديمة: كالأبطال أو الأنبياء أو الملوك أو الأئمة، على اختلاف فيما بينهم، فنجد:

١. في ديانات ما بين النهرين في العراق يعتقدون برجعة هابيل بعد أن قتله قابيل، وسبب هذه الدعوة فيما يبدو هو الانتقام من القاتل. وعند الشيعة الإمامية: أن أعداءهم وخاصة من قتل الحسين مثلاً سيرجع لينتقم منه، وكان عند قدماء الكلدان رواية ترمز إلى موت الأرض وإلى قيامة مردوخ (إله السامي في بابل)[1]. وإلى اليوم يقوم شيعة العراق بمثل هذه التمثيلية بمناسبة عاشوراء (مقتل الحسين رضي الله عنه).

٢. أما الفرس القدماء فيعتقدون برجعة مخلصهم (مثرا) الذي مات قتيلاً، فقاموا بتأليهه وعبادته.

٣. يعتقد الهنود القدماء أنه متى عادت النجوم إلى مقر ابتدائها يظهر المخلص (فشنو) على ظهر جواد أشهب بهيئة فارس بيده نار حارقة للأعداء، وبيده الثانية خاتم مضيء للأجياد العظيمة.

٤. ويعتقد البوذيون برجعة (بوذا) وظهوره بالناموس وهدايته للناس عن طريق التعليم وإعادة النظام. والبوذية تعتقد عمومًا برجعة الأرواح بعد الموت.

٥. ويعتقد المجوس برجوع (يزيد سيروش) بعد انتظار ظهوره، وأنه سيعيد الدولة القديمة، ويأمر بتطبيق تعاليم زرادشت.

٦. ويعتقد اليهود برجعة بعض أنبيائهم، فقالوا برجعة (عزير وهارون)، وفي أثناء مدة شتاتهم اعتقد بعضهم برجعة وظهور مخلص لهم مما هم فيه من العذاب، يوحدهم بعد الشتات، وينتقم من أعدائه، وهذه الفكرة دفعت المستشرق (فريد

(١) أثر الديانات الوثنية: مصدر سابق، (ص: ٦٤٦).

لندر) إلى القول بأن فكرة ابن سبأ المتعلقة برجعة الإمام علي إنما أخذها من اليهودية.

ويرى المستشرق (جولد زيهر) أن اعتقاد اليهود بأن النبي إيليا سيرجع بعد موته هي الفكرة التي تأثر بها الشيعة في قولهم بالرجعة، وقد ورد في التوراة إصحاح أشعيا مانيه «ولكن يعطيكم السيد نفسه آية: ها ..... زبدًا وعسلاً، يأكل متى عرف أن يرفض الشر ويختار الخير»، فرجوع النبي إيليا عند اليهود أو رجوع هارون أو ستلد لهم العذراء مخلصًا يجمعهم بعد شتاتهم، وينتقم لهم من أعدائهم حتى يعم السلام على الأرض، فيأمن الحمل فيجلس بجانب الذئب، فيعم السلام حتى بين الحيوانات وتخضر الأرض، وهذه الأماني طفحت بها شروح التوراة والتلمود، فتلقاها رواة من الشيعة شحذت خيالاتهم، فأضافوا عليها من عقائد وأفكار ديانات سابقة، ووضعوا تلك الروايات في أفواه أئمتهم كتلك الواردة عند الكليني في (الكافي)، وعند المجلسي في (بحار الأنوار) في باب الرجعة، وتنص التوراة في سفر دانيال في الإصحاح رقم (٩،١١،١٢)، «كنت أرى في رؤى الليل، وإذا مع سحب السماء مثل ابن إنسان أتى وجاء إلى قادم الأيام (مخلص) فقربوه قدّامه، فأعطي سلطانًا ومجدًا وملكوتًا، لتتبع له كل الشعوب والأمم والألسنة، وسلطانه سلطان أبدي ما لا يزول، وملكوته ما لا ينقرض» وعند اليهود أن بعض الأنبياء والأولياء لهم القدرة على إحياء الأموات، وزعموا ذلك أيضًا للحاخامات، كما في سفر الملوك أن النبي إيليا أحيا ابن المرأة التي سكن عندها، وذلك بعد موته وإشفاق أمه عليه.

كما ورد أيضًا في سفر الملوك الثاني أن النبي اليشع استطاع أن يعيد الحياه لطفل ميت، وفي التلمود: (هو تفسير وتوضيح للتوراة) جاء فيه أن أحد الحاخامات بعد سكره قام بقتل أحدهم؛ فقام الحاخام بإرجاع الحياة إليه، وأورد بولس حنا مسعد في كتابه همجية التعاليم الصهيونية (ص:٤٣) جملة من الحوادث والقصص عن رجال الدين اليهود ومعتقداتهم وقدرتهم على إحياء الموتى وإرجاعهم إلى الحياة عن طريق حجر

يدعون حمله لهذا الغرض، وقد سخر الشيخ موسى الموسوي ممن يؤمن بالرجعة من الشيعة، وأسند ذلك لمؤثرات خارجية[١].

١٩. فكرة زيارة القبور في الديانات، وأثرها على الشيعة الإمامية

سبق أن أوضحنا عن عبادة الأجداد عند السلاجقة، وتطورها في بناء القبب عليها وزيارتها والدوران حولها، وقد انتقلت هذه العادة في الديانات القديمة، وخاصة ديانات وادي الرافدين إلى الشيعة الإمامية في تعظيم قبور أوليائهم وزيارتها كجزء من الواجبات الدينية على الفرد الشيعي، يقول ابن بابويه القمي: «إن لكل إمام عهدًا في عنق أوليائه وشيعته، وأن من تمام الوفاء بالعهد وحسن الأداء زيارة قبورهم، فمن زادهم رغبة في زيارتهم وتصديقًا لما رغبوا فيه، كان أئمتهم شفعاءهم يوم القيامة»[٢].

وفي كتاب (التهذيب) لمحمد بن الحسن الطوسي الذي هو شرح وتفصيل لكتاب (المقنعة) لشيخه المفيد، وفيه عدة أبواب في فضل زيارة قبور الأئمة وتعظيمها، وقد كتبه شيخ الطائفة محمد بن الحسن الطوسي في عدة أجزاء، يعد من أهم كتب الحديث عند الشيعة الإمامية.

أما محمد الباقر المجلسي فقد نقل في كتابه (بحار الأنوار) من جميع ما تيسر له من كتب الشيعة المتعلقة بزيارة قبور الأولياء، وأفرد كثير من علماء الشيعة الإمامية بالتأليف لزيارة المشاهد المقدسة عندهم، وما يجب أن يقال في تلك الزيارات وما يقدم من نذور، مثل ذلك كتاب الشيخ المفيد باسم المزار، فزيارة قبر الحسين واجبة بنص بعض الأحاديث المروية عندهم، بل يصل الحال إلى تفضيل هذه الزيارة على الحج لبيت الله الحرام، وهذا واضح في العديد من الروايات التي أوردها المجلسي في بحاره. وتارك زيارة قبر الحسين يعد في بعض الروايات ناقصًا الإيمان والدين، كما هو وارد في بحار المجلسي، وكل هذا الحشد الفكري أريد به العديد من المقاصد، من أولها استدرار المال إلى جيوب رجال الدين، وتعميق تلك العقائد المتعلقة بعصمة الإمام وصفاته وشفاعته، وجميع ما ذكرناه

(١) أثر الديانات الوثنية: مصدر سابق، (ص ٦٥٤).

(٢) ابن بابويه القمي: من لا يحضره الفقيه، (٢/٣٦٠).

متعلق بعقيدة الشيعة الإمامية في أئمتهم وأوليائهم، ولهذه الأهداف فقد بالغ القوم في ثواب زيارة قبر الحسين، إلى وضع أحاديث أنها تعادل عشرين حجة لبيت الله الحرام، أو في رواية أخرى مئة حجة؛ وخاصة إذا كانت هذه الزيارة في يوم عرفة، وهذا أمر عجيب سبقهم القرامطة إليه عندما بنوا كعبة ونقلوا الحجر الأسود إليها، للاستعاضة عن حج بيت الله الحرام في مكة، فقد روى الطوسي في تهذيب الأحكام عن جعفر أنه قال: «من زار قبر الحسين يوم عرفة كتب له الله ألف ألف حجة مع القائم، وألف ألف عمرة مع رسول الله، وعتق ألف ألف نسمة، وحمل ألف ألف في سبيل الله، وسماه الله عبدي الصديق آمن بوعدي، وقالت الملائكة؛ فلان صديق زكَّاه الله من فوق عرشه»[١].

وكأن الراوي لبعض تلك الأحاديث يهدف إلى نقل الحج أو حصول سقوط الواجب بزيارة قبر الحسين، فقد نقل المجلسي في بحاره رواية تقول: «من فاته عرفة في عرفات فأدركها في قبر الحسين لم تفته، وأن الله تبارك وتعالى ليبدأ بأهل قبر الحسين قبل أهل عرفات ثم يخاطبهم بنفسه»[٢].

بل إن رواية أخرى تقول: إن الله يشفع يوم عرفة لزوار قبر الحسين قبل الواقفين بعرفة، وعظموا الزيارة في يوم عاشوراء، «كمن زار الله في عرشه» كما يقول نص البحار، وهذا النص قد ذكرني بما ذكره أحد الحجاج في إحدى السنين: أن امرأة من الشيعة في أثناء طوائفها في الكعبة سألت: (أين قبر الله؟) وهذا يدل على تأصّل الأفكار في الديانات الوثنية في هذا الفكر[٣] [٤].

(١) الطوسي: تهذيب الأحكام، (٤١/٦).

(٢) المجلسي: بحار الأنوار، (٨٦/٩٨).

(٣) انظر: كتاب الإبريز من كلام سيدة الغوث عبدالعزيز الدباغ: أحمد بن مبارك (١٦/١- ١٩)، وفصول في أديان الهند: محمد ضياء الأعظمي، (ص١٧٤) عن كتاب العلاقة بين الإمامية (٨٤) مصدر سابق.

(٤) يراجع في تفصيل ذلك خاصة المتعلق بالشيعة الإمامية كتابنا: (جذور التشيع)، وخاصة ما كتبناه عن علاقة الإمام جعفر الصادق بأتباعه، أما ما تعلق بالصوفية، فانظر: كتاب زياد عبدالله الحمام (العلاقة بين الصوفية والإمامية) (ص٢٧٥- ٣١٨).